قصيدة

زُهَيْر بنِ أَبِي سُلْمَى

" هَلْ فِي تَذَكُّرِ أَيَّامِ الصِّبَا فَنَدُ "

دراسة بلاغية تحليلية

إعداد الباحث

د/ لطفي خالد محمود الجوهري

المدرس بقسم البلاغة والنقد بكلية الدراسات

الإسلامية والعربية للبنين بالديدامون – شرقية

المقدمة

الحمد لله الذي أنطق لسان الإنسان ، فأفصح بعجيب البلاغة و سحر البيان ، والصلاة والسلام على من تبوأ من الفصاحة ذروتها ، واقتعد من البلاغة مكان صهوتها سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين أطواد العلم الراسخة ، ومثاقيل الحِكَم الراجحة .

وبعد :

فإن حاجة الإنسان إلى الأدب كحاجة النبات إلى الماء ، يقول ابن المقفع :(بالأدب تنمو العقول وتزكو ، فكما أن الحبة المدفونة في الأرض لا تقدر أن تخلع يبسها ، وتظهر قوتها ، وتطلع فوق الأرض بزهرتها وريعها ونضرتها ونمائها إلا بمعونة الماء الذي يغور إليها في مستودعها فيذهب عنها أذى اليبس والموت ، ويحدث لها بإذن الله القوة والحياة ، فكذلك سليقة العقل مكنونة في مغرزها من القلب لا قوة لها ، ولا حياة بها ، ولا منفعة عندها حتى يعتملها الأدب الذي هو ثمارها وحياتها ولقاحها .)[١]

وإذا أردنا أن نقرأ في الأدب فلنقرأ لأولئك الشعراء الذين كانوا علامات مضيئة في تراثنا العربي ومن بينهم زهير بن أبي سلمى الذي عرف الناظرون في كلام العرب ، وشهد السالكون على مناهج الأدب له بالفضل والتقدم ،

---

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير لعبد الله بن المقفع ص/ ١٢ دار صادر بيروت

يقول عنه بديع الزمان الهمذاني : (يذيب الشعر والشعر يذيبه ، ويدعو القول والسحر يجيبه .) [١]

شاعرنا ذو طابع مميز ، وهو صاحب بصمة خاصة ، روحه تسرى في شعره ، صاحب مدرسة وفكر ، كان لا يتعجل في إخراج القصيد وإنما كان يظل يعيد فيه النظر ، ويقلب فيه الفكر والخاطر ، ويعمل فيه العقل والقلب حتى يرضى عنه وينشده فيتلقاه ويحفظه عنه رواته ، فيذيعونه وينشرونه ، فيسرى في الآفاق ، ويصبح حديث السامر والساهر .

من أجل ذلك وغيره وجهت وجهي صوب أشعاره لأقطف من حدائقها الغناء ، فوقعت عيني على زهرة له مورقة مونقه وهي (هل في تذكر أيام الصبا فند) ، فأخذت أقلب فيها الفكر والخاطر ، فأغراني باقتطافها ، وشحذ همتى لإدراك رحيقها وعبيرها أمور عدة منها :

(١) أن هذه القصيدة لم تحظ بدراسة بلاغية تحليلية متأنية كمعلقة زهير الشهيرة وحولياته

(٢) التعرف على خصائص شعر فحل من فحول الشعر العربي وبصمته اللغوية و التركيبية التي تبين عن روح قائلها .

---

(١) مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني المقامة القريضية ص/ ٢ شرحها العلامة الفاضل الشيخ / محمد عبده المصري الذخائر الهيئة العامة لقصور الثقافة – القاهرة – ٢٠١٣م .

(٣) محاولة من الباحث جادة للانتقال بالدرس البلاغي من مجال النظرية إلى مجال التطبيق .

(٤) التعرف على الأسباب التي دعت الإمام عبد الله بن عباس – رضى الله عنه – إلى تقديم زهير بن أبى سلمى على غيره من الشعراء ، والتعرف على معيار نقد الشعر عنده حيث جعل من تلك القصيدة شاهداً على تفوق زهير وبراعته الشعرية .

هذا والبحث جاء في مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة وفهارس .

ففي المقدمة : بينت الأسباب التي حدت بي نحو اختيار هذا الموضوع ، وذكرت الخطة التي قامت عليها تلك الدراسة .

وفي التمهيد : قمت بالتعريف بالشاعر زهير بن أبي سلمى ، وبعرض القصيدة موضوع الدراسة .

ثم قمت بتقسيم القصيدة إلى فصول وفق المعاني الواردة فيها إلى :

الفصل الأول : حنين وشوق .

ويشتمل على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : الذكرى والحنين لأيام الصبا .

المبحث الثاني : الشوق إلى اللقاء .

المبحث الثالث : بيان ما بينهما من بعد مسافة وطول سفر .

الفصل الثاني : وصف الناقة والرفقاء .

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : وصف الناقة .

المبحث الثاني : وصف الخلان والأصحاب رفقاء الرحلة .

الفصل الثالث : المدح .

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : مدح ابن سلمى سنان وابنه هرم .

المبحث الثاني : مدح آباء الممدوح وقومه .

والخاتمة : عرضت بها أهم ما توصلت إليه من نتائج كانت ثمرة لتلك الدراسة

وفي الفهارس : قمت بعمل :

(١) فهرس للمصادر والمراجع .

(٢) فهرس للموضوعات .

هذا ، " وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب "

وصلِّ اللهم وسلِّم وبارك على سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم –.

" التمهيد "

أولاً : التعرف بـ زهير بن أبى سُلْمى

اسمه ونسبه :

هو زهير بن أبى سلمى ، واسم أبى سلمى ربيعة بن رباح بن عوَّام بن قرط بن الحارث بن مازن بن خلاوة بن ثعلبة بن ثور بن لاطم بن عثمان بن مزينة بن أد بن طانجة بن إلياس بن مُضَر . (١)

ضبط اسمه : هو زهير بن أبى سُلْمى ، قال في الصحاح : ليس في العرب سُلْمَى " بالضم " غيره . (٢)

مولده ونشأته :

ولد في قبيلة مزنية بنواحي المدينة ، وهذه القبيلة كانت تجاور في الجاهلية بنى عبد الله بن غطفان حيث كانوا ينزلون في الحاجر بنجد شرقي

---

(١) ينظر جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام تأليف / أبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشى ص / ٦٧ حققه وضبطه وزاد في شرحه / على محمد البجاوي مطبعة نهضة مصر .

(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية لأبى نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابى مادة : سلم تحقيق / أحمد عبد الغفور عطا دار العلم للملايين الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

المدينة ، و ينزل معهم بنو مرَّة بن عوف بن سعد بن ذبيان أخوال أبيه ربيعة ، ويحدثنا الرواة أنه أقام فيهم زمنا مع أمه . (١)

ويبدو أن والده لم يعمر طويلاً ، فقد مات وتزوجت امرأته أوس بن حجر الشاعر التميمي المشهور ، وكان يقوم على تربيته والعناية به خاله بشامة بن الغدير ، كما قام بأمر أخواته : سلمى والخنساء . (٢)

وزهير مزنى النسب غطفانى النشأة والمربى ، ويحدثنا الرواة أنه أقام فيهم زمناً مع أمه ، وحدث أن أغار مع قوم منهم على طئ ، وأصابوا نعماً كثيراً وأموالا ، ولما رجعوا لم يفردوا له سهماً في غنائمهم فغاضبهم ، وانطلق بأمه إلى قبيلته مزينة ، ثم لم يلبث أن أقبل في جماعة منها مغيراً على عشيرة أخواله ، ولم يكادوا يتوسطون ديارها حتى تطايروا راجعين وتركوه وحده ، فأقبل حتى دخل في أخواله . (٣)

---

(١) ينظر تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) د / شوقي ضيف ص / ٣٠٠ دار المعارف الطبعة الخامسة عشرة .

(٢) ينظر دراسة في نصوص العصر الجاهلي تحليل وتذوق المؤلف / السيد أحمد عمارة ١٢٨/١ مكتبة المتبني .

(٣) ينظر تاريخ الأدب العرب (العصر الجاهلي) د/ شوقي ضيف ص / ٣٠٠ .

أسرة شاعرة :

ورث زهير الشعر عن أبيه وخاله بشامة بن الغدير الذي جمع إلى الشعر الحكمة وجودة الرأي ، وكانت غطفان إذا أرادوا الغزو أتوه فاستشاروه وصدروا عن رأيه ، فإذا رجعوا من الحرب قسموا له مثل ما يقسمون لأفضلهم وقد لازمه زهير وأخذ عنه الشعر وجودة الرأي .

وكان زوج أمه أوس بن حجر الشاعر التميمي المشهور ، وكانت أختاه سلمى والخنساء شاعرتين ، وابناه كعب وبجير شاعرين ، وابن ابنه المضرب بن كعب بن زهير شاعراً كذلك . (١)

ولذا يقول ابن قتيبة : (لم يتصل الشعر في ولد أحد من الفحول الجاهلية ما اتصل في ولد زهير ، وفي الإسلام ما اتصل في ولد جرير .) (٢)

وعندما حضرت بشامة بن الغدير الوفاة أخذ يقسم ماله في أهل بيته وبين بنى إخوته ، فأتاه زهير ، فقال : يا خالاه لو قسمت لي من مالك ! فقال

---

(١) ينظرأشعار الشعراء الستة الجاهليين

المؤلف / أبو الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى الشنتمري الأندلسي المعروف بالأعلم ص / ٩٥ تحقيق د/ محمد عبد المنعم دار الآفاق الجديدة .

وينظر تاريخ آداب العرب المؤلف / مصطفى صادق بن عبد الرازق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي ١٥٦/٣ دار الكتاب العربي.

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة تحقيق وشرح / أحمد محمد شاكر ١٣٧/١ دار المعارف .

: والله يا بن أختي لقد قسمت لك أفضل ذلك وأجزله قال : وما هو ؟ ، قال : شعري ورثتنيه . [١]

صفاته :

كان زهير شاعراً مجيداً ، كما كان سيداً شريفاً ثرياً ، يقول ابن سلام الجمحى : (وكان كثير المال ، وكان ممن فقأ عين بعير في الجاهلية ، وكان الرجل إذا ملك ألف بعير فقأ عين فحلها .) [٢]

وكان حليماً معروفاً بالورع ، كما كان حكيماً يعدونه من مترهبة العرب يقول ابن قتيبة : (وكان زهير يتأله ويتعفف في شعره ، ويدل شعره على إيمانه بالبعث ، ذلك قوله :

يُؤَخَّرْ فَيُودَعْ فِي كِتَابٍ فَيُدَّخَرْ لِيَومِ الحِسَابِ أَو يُعَجَّلْ فَيُنْقَم .) [٣]

كما كان حيياً ، والشاهد على ذلك أن هرماً قد آلى أن لا يمدحه زهير إلا أعطاه ، ولا يسأله إلا أعطاه ، ولا يسلم عليه إلا أعطاه عبداً أو وليدة أو

---

(١) ينظر تاريخ آداب العرب ١٥٦/١ .

(٢) طبقات فحول الشعراء تأليف / محمد بن سلام الجمحي ص/٥٦٣ قراه وشرحه / محمود محمد شاكر مطبعة المدنى

(٣) الشعر والشعراء ١٣٩/١

فرساً ، فاستحيا زهير مما كان يقبله منه ، فكان إذا رآه في ملءِ قال : عموا صباحاً غير هرم وخيركم استثنيت . (١)

كما كان معروفاً بالصدق والحكمة ، وخير شاهد على ذلك حكمه المبثوثه في ديوانه والتي تنم عن عقل متدبر رزين يستطيع أن يزن الأمور ، ويعرف عواقب الأفعال . ومن حكمه قوله : (٢)

وَمَنْ يَعْصِ أطْرَافَ الزُّجَاجِ فَإِنَّهُ يُطِيعُ العَوَالِي رُكِّبَت كُلَّ لَهْذَمِ

وقوله أيضاً : (٣)

وَمَنْ لَمْ يُصَانِعْ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ يُضَرَّسْ بِأَنيابٍ وَيُوطَأْ بِمَنْسَمِ

وَمَنْ يَجْعَلْ المعروفَ مِن دُونِ عِرْضِهِ يَفْرِهُ وَمَنْ لا يَتَّقِ الشَّتْمَ يُشْتَمِ

وقوله كذلك : (٤)

لِسَانُ الفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُؤَادُه فَلَم يَبْقَ إِلاَّ صُورَةُ اللَّحمِ وَالدَّمِ

---

(١) ينظر مجانى الأدب في حدائق العرب المؤلف : رزق الله يوسف بن عبد المسيح بن يعقوب شيخو ٢٩٠/٦ مطبعة الآباء اليسوعيين – بيروت ١٩١٣م .

(٢) ديوان زهير بن أبى سلمى ص/ ١١١ قدم له وشرحه أ / على حسن فاعور دار الكتب العلمية – بيروت . الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

(٣) المصدر السابق ص / ١١٠.

(٤) المصدر السابق ص / ١١٢ .

وغير ذلك الكثير والكثير مما هو شاهد على حبه للفضائل وبغضه للشرور والرزائل .

مدرسته الشعرية :

عرف لزهير مدرسة خاصة به ، فقد كان ينقح أشعاره حتى عرفت مدرسته بمدرسة عبيد الشعر ، فقد كان يقول القصيدة في أربعة أشهر ، وينقحها في أربعة أشهر ويرسلها في أربعة أشهر ، و دعيت هذه القصائد بحوليات زهير ، عاشت هذه المدرسة طويلاً ، و كان لها رواد وتلاميذ ، فقد كان كعب تلميذ أبيه زهير ، وكان الحطيئة تلميذ كعب وزهير ، وكان هدبه بن خشرم تلميذ الحطيئة ، وكان جميل تلميذ هدبة بن خشرم . (١)

تقديم زهير على الشعراء :

كان عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – يقدمه على غيره ، فقد روى عن ابن عباس قال : قال لي عمر : أنشدني لأشعر شعرائكم ، قلت : من هويا أمير المؤمنين ؟ قال : زهير ، قلت : وكان كذلك ! قال : كان لا يعاظل بين الكلام ولا يتبع وحشيه ، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه . (٢)

قال أبو عبيدة : صدق أمير المؤمنين ، ولشعره ديباجة إن ذقته فشهد، و إن مسسته ذاب ، وإن شئت قلت حجر ، ولو ردَّيت به الجبال لأدالها .(٣)

---

(١) ينظر شرح المعلقات التسع المؤلف : منسوب لأبي عمروا لشيبانى ١٧٩/١ تحقيق وشرح / عبد المجيد همو مؤسسة الأعلمى للمطبوعات – بيروت الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م

(٢) ينظر طبقات فحول الشعراء ص /٦٣ .

(٣) ينظر جمهرة أشعار العرب ص / ٦٩ .

وكان قدامة بن موسى عالماً بالشعر ، وكان من علماء أهل المدينة ، وكان يقدم زهيراً [١] ، ويستجيد قوله : [٢]

قَد جَعَلَ المُبْتَغُونَ الخَير في هَرِمٍ والسَّائِلونَ إِلى أَبوَابِهِ طُرُقَا

إِنْ تَلْقَ يَوماً عَلَى عِلاَّتِهِ هَرِماً تَلقَ السَّمَاحَةَ مِنهُ والنَّدَى خُلُقَا

يقول ابن سلام : (وقال أهل النظر : كان زهير أحصفهم شعراً ، وأبعدهم عن سخف ، وأجمعهم لكثير من المعنى في قليل من المنطق ، وأشدهم مبالغة في المدح ، وأكثرهم أمثالاً في شعره .) [٣]

وانتقد ابن رشيق كلام ابن سلام عن زهير : (وأشدهم مبالغة في المدح) لأن فيه تناقضا مع كلام عمر بن الخطاب – رضى الله عنه –حيث قال : (وإذا قوبل آخر كلام عمر بآخر هذا الكلام تناقض قصد المؤلف –أعنى ابن سلام – لأن عمر إنما وصفه بالحذق في صنعته ، والصدق في منطقه ؛ لأنه لا يحسن في صناعة الشعر أن يعطى الرجل فوق حقه من الملاح ، لئلا يخرج الأمر إلى التنقص والازدراء .) [٤]

---

(١) ينظر طبقات فحول الشعراء ص / ٦٣ ، ٦٤ ، والشعر والشعراء ص / ١٣٨ .

(٢) ديوان زهير بن أبى سلمى ص /٧٧ .

(٣) طبقات فحول الشعراء ص / ٦٤ .

(٤) العمدة في محاسن الشعر وآدابه للإمام / أبي على الحسن بن رشيق القيرواني ١/ ١٠٣

=

ورد على ذلك الأستاذ محمود شاكر فقال : (ولم يذهب ابن سلام إلى المبالغة الذميمة بل أراد الاجتهاد في تصحيح معنى المدح وتوفيته حقه .)[١]

وعن عكرمة بن جرير قال : قلت لأبي : يا أبه ، من أشعر الناس ؟: قال : أعن أهل الجاهلية تسألني أم أهل الإسلام ؟ ، قلت : ما أردت إلا الإسلام ، فإذا ذكرت أهل الجاهلية فأخبرني عن أهلها ، قال : زهير شاعرهم.) [٢]

وفاته :

عاش زهير في سعة من المال ، وكان فيه توقر ونبل ، ولذا فإن شعره يخلو من الفحش والعهر ، وقد عاش يسطر الفضائل والأخلاق والحكم ، كما عاش للشعر يعلمه ابنيه بجيراً وكعباً من جهة ، وأناساً آخرين من غير بيته أشهرهم الحطيئة ، فقد كان يلقنهم شعره ، فيروونه عنه ، وما يزالون يتلقنونه حتى تنطبع في أنفسهم طريقة نظم الشعر وصوغه ، وهو في أثناء ذلك يمتحن قدرتهم بما يلقى عليهم من أبيات يطلب إليهم أن يجيزوها بنظم بيت

تحقيق / محمد عبد القادر عطا دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م

(١) ينظر تعليق الأستاذ محمود شاكر على طبقات فحول الشعراء ص/ ٦٤

(٢) طبقات فحول الشعراء ص /٦٤ ، ٦٥ ، والعمدة ١٠١/١ .

على غرارها في الوزن والقافية ، وعمَّر زهير طويلاً ، ومات قبيل الإسلام عن عمر يناهز المائة عام . [١]

(١) ينظر تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) د/ شوقي ضيف ص / ٣٠٣ ، ٣٠٤ .

" ثانياً "

" عرض القصيدة "

قال عبد الله بن محمد البصري : حدثنا إبراهيم بن عبد الله السدوسى ، عن محمد بن خداش الأسدى ، عن نوح بن درَّاج ، عن حبيب بن زاذان ، عن أبيه قال :

دخلت على عمر بن الخطاب – رحمه الله – وعنده نفر من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فذكروا الشعر ، فقال لهم عمر : من كان أشعر العرب ؟ فاختلفوا فبيناهم كذلك إذ طلع عليهم عبد الله بن عباس ، فقال عمر لجلسائه : قد جاء ابن بجدتها [١] ، وأعلم الناس بأيامها . ثم قال عمر : من كان أشعر العرب يا ابن عباس ؟ ، قال : ذاك زهير بن أبى سلمى المزنى ، فقال عمر : هلا تنشدنا من شعره أبياتاً نستدل بها على قولك فيه ! قال نعم ، مدح قوماً من غطفان ، يقال لهم بنوسنانٍ فقال :[٢]

---

(١) ابن بجدتها : يقال : ابن بجدتها للعالم بالشيء المتقن له ، المميز له ، وكذلك يقال للدليل الهادي . لسان العرب لابن منظور دار المعارف ماة : بجد

(٢) شرح شعر زهير بن أبي سلمى صنعة / أبو العباس ثعلب ص/ ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ تحقيق د / فخر الدين قباوة مكتبة هارون الرشيد – دمشق سوريا الطبعة الثالثة ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٨ م .

وديوان زهير بن سلمى ص/ ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ شرحه وقدم له الأستاذ / على حسن فاعور .

هَلْ فِـي تَذَكُّـرِ أيَّـامِ الصِّبَا فَنَـدُ(١)؟

أمْ هَـلْ لِمَا فَـاتَ مِـنْ أيَّامِـهِ رِدَدُ؟(٢)

أمْ هَـلْ يُـلاَمَنَّ بَـاكٍ هَـاجَ عَبرَتَـهُ

بِالحِجْرِ(٣) إِذْ شَفَّهُ الوَجْدُ الـذِي يَجِدُ؟

أوْفَى(٤) عَلَى شَرَفٍ (٥) نَشْزٍ(٦) فَأَزْعَجَهُ

قَلْبٌ إِلَى آلِ سَلْمَى تَائِـقٌ (٧) كَمِـدُ (٨)

---

(١) الفند : ضعف الرأي عن هرم . لسان العرب مادة : فند

(٢) ردد : جمع ردَّة ومعناها : الرجوع . لسان العرب مادة : ردد

(٣) الحجر : اسم ديار ثمود بوادي القرى بين المدينة والشام معجم البلدان لشهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومى الحموى ٢/ ٢٢١ دار صادر – بيروت الطبعة الثانية ١٩٩٥م

(٤) أوفى : أشرف وأتى . لسان العرب مادة : وفى

(٥) شرف : أعلى الشيء. لسان العرب مادة : شرف

(٦) نشز : المتن المرتفع من الأرض . لسان العرب مادة : نشز

(٧) تائق : تاقت نفس إلى الشيء نزعت واشتاقت .لسان العرب مادة : توق

(٨) كَمِد : الكمد الهم والحزن الذي لا يستطاع إمضاؤه .

قال الجوهري : الكمد : الحزن المكتوم . لسان العرب مادة : كمد

مَتَى تُرَى دَارُ حَيٍّ عَهْدُنَا بِهِمُ

حَيْثُ التَقَى الغَوْرُ(١)مِنْ نُعْمَانَ(٢)وَالنُّجُدُ؟(٣)

لَهُم هَوًى مِنْ هَوَانَا مَا يُقَرِّبُنَا

مَانَتْ عَلَى قُرْبِهِ الأَحْشَاءُ وَالكَبِدُ

إِنِّي لِمَا استَوْدَعَتْنِي يَوْمَ ذِي غُذُمٍ(٤)

رَاعٍ إِذَا طَالَ بِالمُسْتَوْدَعِ الأَمَدُ

إِنْ تُمْسِ دَارُهُمُ عَنَّا مُبَاعِدَةً

فَمَا الأَحِبَّةُ إِلاَّ هُمْ وَ إِنْ بَعُدُوا

---

(١) الغور : ما انخفض من الأرض . لسان العرب مادة : غور .

(٢) نعمان : واد لهزيل قريب من مكة ينظر الجبال والأمكنة والمياه المؤلف / / ابو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري جار الله ٣٠٣/١ تحقيق د/ أحمد عبد التواب عوض المدرس دار الفضيلة للنشر والتوزيع – القاهرة عام النشر ١٣١٩هـ / ١٩٩٩م

(٣) النُجُد : جمع نَجْد وهو ما غلظ من الأرض وأشرف منها وارتفع واستوى . لسان العرب مادة : نجد

(٤) ذي غذم : موضع من نواحي المدينة . معجم البلدان ١٨٩/٤

يَـا صَاحِبَيَّ انْظُرَا وَ الغَوْرُ دُوْنَكُمَـا

هَـلْ يَبْـدُوَنَّ لَنَـا فِيمَا نَـرَى الجُمُدُ؟(١)

هَيْهَـاتَ هَيْهَـاتَ مِنْ نَجْدٍ وَسَاكِنِـهِ

مَنْ قَـدْ أَتَـى دُوْنَهُ البَغْثَاءُ(٢) والثَّمَدُ(٣)

إِلَـى ابْنِ سَلْمَى سِنَانٍ وابْنِـهِ هَـرِمٍ

تَنْجُو(٤) بِأَقْتَادِهَـا(٥) عَيْدِيَّةٌ(٦) تَخِـدُ(٧)

---

(١) الجُمُد : المكان المرتفع الغليظ . لسان العرب مادة : جمد

(٢) البغثاء : مكان ذو رمل وحجارة . لسان العرب مادة : بغث

(٣) الثمد : موضع يجتمع فيه ماء السماء . لسان العرب مادة : ثمد

(٤) تنجو: تسرع وتسبق . لسان العرب مادة : نجا

(٥) أقتادها : جمع قتد وهو خشب الرحل ، وقيل : من أدوات الرحل ، وقيل : جميع أداته لسان العرب مادة : قتد

(٦) عيدية : نجائب من النوق تنسب إلى بنى العيد ، وقيل : تنسب إلى فحل منجب منجب يقال له : عيد وقيل : منسوبه إلى عاد بن عاد ، وقيل : منسوبه عادىٍّ بن عاد إلا أنه على هذين الأخيرين نسب شاذ ، وقيل : لا يدري إلى أي شيء نسبت لسان العرب مادة : عود

(٧) تخد : ووخد البعير يخد وخداً وخداناً : أسرع ووسع الخطو ، وقيل : رمى بقوائمه بقوائمه كمشي النعام لسان العرب مادة : وخد .

فِي مُسْبَطِرٍّ(١) تَبَارَى فِي أَزِمَّتِهَا

فُتْلُ(٢) المَرَافِقِ فِي أَعْنَاقِهَا قَوَدُ(٣)

مُعْصَوْصَبَاتٍ(٤) يُبَادِرْنَ النَّجَاءَ(٥) بِنَا

إِذَا تَرَامَتْ بِهَا الدَّيْمُومَةُ(٦) الجَدَدُ (٧)

عَوْمَ القَوَادِسِ(٨) قَفَّى(٩) الأُرْدَمُونَ(١٠) بِهَا

إِذَا تَرَامَى بِهَا المُغْلَوِلِبُ(١١) الزَّبِدُ (١٢)

---

(١) مسبطر : اسبطر : أسرع وامتد ، وكل ممتد : مسبطر. لسان العرب مادة : سبطر

(٢) فتل : واحدها فتلاء ، والناقة الفتلاء هي المدمجه المرفق المشدود عصب ذراعها . لسان العرب مادة : فتل

(٣) قود : الأقواد من الإبل : الطويل العنق والظهر . لسان العرب مادة : قود

(٤) معصوصات : اعصوصبت الإبل وأعصبت : جدت في السير لسان العرب مادة : عصب

(٥) النجاء : السرعة في السير . لسان العرب مادة : نجا

(٦) الديمومة : الفلاة التي يدوم السير فيها لبعدها ، والمستوية التي لا أعلام فيها فهي منكرة . لسان العرب مادة : دوم

(٧) الجدد : الأرض الصلبة ، وقيل الغليظة لسان العرب مادة : جدد

(٨) القوادس : جمع قادس وهي السفينة العظيمة لسان العرب مادة : قدس

(٩) قفَّى : أى ذهب به أو اتبع آثار من سبقه . لسان العرب مادة : قفا

(١٠) الأردمون : واحده الأردم وهو الملاح . لسان العرب مادة : ردم

(١١) المغلولب : العظيم الهائل المشرف . لسان العرب مادة : غلب

(١٢) الزبد : يقال : بحر مزبد أي مائج يقذف بالزبد وهو القذى . لسان العرب مادة : زبد

بِفِتْيَـةٍ كَسُيوفِ الهِنـدِ يَبْعَثُهُـم

هَـم فَكُلُّهُـم ذُو حَاجَـةٍ يَقِـدُ(١)

مَنَّهُـم(٢) السَّيرُ فَـانآدَتْ سَوَالِفُهُم(٣)

وَمَـا بِأَعْنَاقِهِـم إِلاَّ الكَـرَى أَوَدُ

إِنِّـي لَأَبْعَثُهُـم وَاللَّيْـلُ مُطّـرِقٌ(٤)

وَلَـم يَنَامُوا سِوَى أَنْ قُلتُ قَدْ هَجَـدوا

إِلَى مَطَايَا لَهُـم حُـدْبٌ(٥) عَرَائِكُهَـا(٦)

وَقَـدْ تَحَلَّلَ مِنْ أَصْلاَبِهَا القَحَـدُ(٧)

---

(١) يقد : كل سئ يتلألأ فهو يقد لسان العرب مادة : وقد

(٢) منَّهم : منَّه السير يمُنه منًّا : أضعفه وأعياه لسان العرب مادة : منن

(٣) سوالفهم : جمع سالف وهو أعلى العنق ، وقيل هي ناحيته من معلق القرط إلى الحاقنه . لسان العرب مادة : سلف

(٤) مطَّرق : تطارق الشيء تتابع ، والمراد الليل المتراكب الشديد الظلمة . لسان العرب مادة : طرق

(٥) حدب : جمع حدباء وهي الدابة التي بدت حراقفها وعظم ظهرها . لسان العرب مادة : : حدب

(٦) عرائكها : عريكة البعير سنامه إذا عركه الحمل أي دلكه دلكا . لسان العرب مادة : عرك

(٧) القحد : القحد بالتحريك : أصل السنام والجمع قحاد ، وقيل : هي ما بين المأنتين من شحم السنام ، وقيل : هي السنام لسان العرب مادة : قحد

أقُـولُ لِلْقَـومِ وَالأَنْفَـاسُ قَـدْ بَلَغَتْ

دُونَ اللِّهَا(١)غَـيْرَ أنْ لَـم يَنْقُصِ العَـدَدُ

سِيرُوا إِلـى خَـيرِ قَيسٍ كُلِّهَا حَسَباً

وَمُنْتَهَى مَـنْ يُرِيـدُ الخَيْرَ أو يَفِـدُ(٢)

فَا ستَمطِروا الخيرَ مِن كَفَّيهِ إِنَّهُمَـا

بِسَيْبِـهِ(٣) يَتَرَوَّى منهمـا البُعُـدُ

مُبـارَكُ الاسمِ مَيْمُونٌ نَقِيبَتُـه(٤)

جَزلُ المَوَاهِبِ مَنْ يُعْطِي كَمَن يَعِـدُ

---

(١) اللِّها : جمع لهاة وهي : لحمة حمراء في الحنك معلقة على عكدة اللسان . لسان العرب مادة : لها

(٢) يفد : قال الأصمعي : وفد فلان يفد وفادة : إذا خرج إلى ملك أو أمير . لسان العرب مادة : وفد

(٣) بسيبه : السيب : العطاء والعُرفُ ، والسيب : مجرى الماء لسان العرب مادة : سيب

(٤) ميمون نقيبته : قال ثعلب : ميمون المشورة ، وقال ابن السكيت : ميمون الأمر ينجح فيما يحول .لسان العرب مادة : نقب

فَالنَّاسُ فَوجَانِ فِي مَعْروفِهِ شَرَعٌ(١)

فمنهُمُ صَادِرٌ(٢)أو قَارِبٌ يَرِدُ(٣)

رَحْبُ الفِنَاءِ لو أنَّ النَّاسَ كُلَّهُمُ

حَلُّوا إِلَيه إِلى أنْ يَنْقَضِي الأَبَدُ

مَازَالَ فِي سَيْبِهِ سَجْلٌ(٤)يَعُمُّهُمُ

مَادامَ فِي الأرضِ من أوتادِها(٥) وَتَدُ

فِي النَّاسِ للنَّاسِ أَنْدادٌ وليسَ لَهُ

فِيهم شَبِيهٌ(٦)وَلا عَدلٌ(٧) وَلا نِدَدُ(٨)

---

(١) شرع : يقال : شَرَع : إبله أي أوردها شريعة الماء فشربت ولم يستق لها لسان العرب مادة : شرع

(٢) صادر : الصَّدَر عن كل شيء الرجوع عنه بعد إتمامه لسان العرب مادة : صدر

(٣) يرد : ورد الماء أشرف عليه دخله أو لم يدخله لسان العرب مادة : ورد

(٤) سجل : الدلو الضخمة المملوءة ماءً ، ولا يقال لها فارغة سجل ولكن دلو لسان العرب مادة : سجل

(٥) أوتاد : أوتاد الأرض : الجبال لأنها تثبتها لسان العرب مادة : وتد

(٦) الشبيه : المثل والجمع : أشباه ، وأشبه الشيء الشيء : ماثله لسان العرب مادة مادة : شبه

(٧) العدل : ما عادل الشيء من غير جنسه ، وقيل هو المثل وليس بالنظير عينه . . لسان العرب مادة : عدل

(٨) ندد : المثل والنظير والجمع أنداد ، وأصل (ندد) ندّ ولكن فك الإدغام من أجل الضرورة الشعرية . لسان العرب مادة : ندد

إِنِّـي لَمُـرتَحِلٌ بالفَجرِ يُنْصِبُنِـي

حتَّـى يُفَـرجَ عَنِّـي هَـمٌّ مـا أجِـدُ

لَـو كَانَ يَخْلُدُ أقْـوَامٌ بِمَجْدِهِـمُ

أو مـا تَقَـدَّم مِـنْ أيَّامِهِـم خَلَـدُوا

أو كانَ يَقْعُدُ فَوْقَ الشَّمسِ مِن كرَمٍ

قَـومٌ بِأوَّلِهِـم أو مَجْدِهِـم قَعَـدُوا

قَوْمٌ أبوهُم سِنَـانٌ حِيـنَ تَنْسُبهُـم

طَابُـوا وَطابَ مِنَ الأولاد مـا ولـدوا

إِنسٌ إذا أمِنـوا جِـن إِذَا غضبوا

مُرَزَّءُونَ(١)بَهَـا لِيلُ (٢)إِذَا جُهِـدُوا(٣)

---

(١) مرزءون : رجل مرزأ أي : كريم يصاب منه كثيراً ، وفي الصحاح : يصيب الناس خيره . لسان العرب مادة : رزأ

(٢) بهاليل : جمع بهلول وهو العزيز الجامع لكل خير ، وعن السيرافى : البهلول الحيي الكريم لسان العرب مادة : بهل

(٣) جهدوا : جُهِدَ الرجل فهو مجهود من المشقة ، يقال : أصابهم قحوط من المطر المطر فجهدوا جهداً شديداً . لسان العرب مادة : جهد

مُحَسَّدونَ عَلَـى مَا كانَ مِن نِعَـمٍ

لاَ يَنْزِعُ اللهُ منهم مـا لـهُ حُسِـدُوا

لَـو يُوزَنُون عِيَـاراً أو مُكايَلَـةً

مَالُوا بِرَضوَى(١) وَلَـم يَعدِلهُمُ أحَدُ

(١) رضوى : جبل بالمدنية لسان العرب مادة : رضى

الفصل الأول

حنين وشوق

المبحث الأول

الذكرى والحنين لأيام الصبا

يقول زهير بن أبى سلمى :

هَلْ فِي تَذَكُّرِ أيَّامِ الصِّبَا فَنَدُ ؟ أمْ هَلْ لِمَا فَاتَ مِنْ أيَّامِهِ رِدَدُ ؟

أمْ هَلْ يُلاَمَنَّ بَاكٍ هَاجَ عَبرَتَهُ بِالحِجْرِ إِذْ شَفَّهُ الوَجْدُ الذِي يَجِدُ ؟

أوْفَى عَلَى شَرَفٍ نَشْزٍ فَأزْعَجَهُ تَلْبٌ إِلَى آلِ سَلْمَى تَائِقٌ كَمِدُ

المعنى العام :

يطالعنا الشاعر في بدء هذه القصيدة بهذه الأبيات الثلاثة التي يتحدث فيها عن ذكراه وحنينه لآل سلمى الذين قضى بينهم أجمل أيامه وأرغدها وهي أيام الصبا ، فعندما أطل وأشرف من فوق مكان مرتفع ورمى بعينه تجاه ديارهم حنَّ إليهم واشتاق ، ووجد قلبه أشد الوجد ، وأخذت عيناه تفيضان بالدموع من لوعة الفراق .

التحليل البلاغي :

افتتح زهير حنينه وذكراه بقوله :

هَلْ فِي تَذَكُّرِ أيَّامِ الصِّبَا فَنَدُ ؟ أمْ هَلْ لِمَا فَاتَ مِنْ أيَّامِهِ رِدَدُ ؟

والاستفهام الأول مفيد للنفي أي ليس في تذكر أيام الصبا فند ، وأتى بالنفي في ثوب الاستفهام ليعطى فرصة للمخاطب في التفكير قبل التعبير ،

فإذا ما أقرَّ بما أراده الشاعر كان ذلك أوقع في نفسه من النفي ابتداءً ، إذ يحمله ذلك على النفي ، ويدفعه إليه دفعاً . (١)

ثم اتبع هذا الاستفهام باستفهام ثان فقال :

أمْ هَلْ لِمَا فَاتَ مِنْ أيَّامِهِ رِدَدُ ؟

وهذه الاستفهام مفيد للتمني أي : وليت لما فات من أيامه رجوع وعودة ، وأبرز الشاعر الأمر المتمني في صورة الأمر المستفهم عنه ليبين عن كمال عنايته به وشدة رغبته في وقوعه حيث نقل هذا الأمر المحبب إلى نفسه من حيز غير الممكن وهو (التمني) إلى حيز الممكن (الاستفهام) فصار يستفهم عنه كما يستفهم عن الأمور التي لا جزم بانتفائها . (٢)

كما نلاحظ التعبير بلفظ (تذكر) على وزن (تَفَعُّل) مصدر (تَفَعَّلَ) ، للدلالة على اشتغال قلبه وعقله به مرة بعد مرة ، وتكرار وإلحاح هذا الأمر عليه ، ولذا يقول ابن قتيبة : (وتأتى " تفعلت " للشيء تأخذ منه الشيء

---

(١) ينظر من بلاغة القرآن د/ أحمد أحمد بدوي ص / ١٦٣ نهضة مصر ٢٠٠٥م .

(٢) ينظر المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم للعلامة / سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني ص / ٤٠٧ تحقيق د / عبد الحميد هنداوي دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م .

بعد الشيء) ، كما يقول أيضاً : (فهذا كله ليس عمل وقت واحد لكنه عمل شيء بعد شيء في مهلة) .[١]

وكرر الشاعر لفظ (الأيام) مرتين ليشير إلى تغاير المراد منها ، إذا المراد من لفظ الأيام في الشطر الأول الأحداث والذكريات الواقعة فيها ، وعبَّر عنها بالأيام عن طريق المجاز المرسل الذي علاقته اللزومية ؛ لبيان مدى امتلاء هذه الأيام بالذكريات العطرة والأحداث السارة .

بينما المراد بالأيام في الشطر الثاني الحقيقة وهي الأوقات والأزمنة الخاصة الماضية .

والتعبير بالمجاز والحقيقة يبين عن مقدرة زهير البيانية ومدى حفاوته بتلك الأوقات وهذه الأحداث والذكريات التي مرت به مع هؤلاء القوم .

كما جاء التعبير بالجمع (ردد) وواحدها ردة للدلالة على رغبة الشاعر الأكيدة في عودة هذه الأيام ، فهو لا يتمنى عودتها فحسب ، بل يتمنى عودتها مرة بعد مرة ، وتجددها فلا تنقضي أو تنقطع أبدا .

وقدم المسند مرتين في البيت الأول في (في تذكر أيام الصبا) و(لما فات من أيامه) على المسند إليه (فند) و (ردد) لبيان الاهتمام والعناية بهذه الذكريات وشدة توقه وحنينه لما فات من أيام الصبا .

---

(١) أدب الكاتب لأبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ص / ٤٦٧ تحقيق / محمد الدالي مؤسسة الرسالة – بيروت الطبعة الثانية ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م .

وبهذا ففي هذا البيت براعة استهلال لأنه اجتمعت به مقومات في غاية البراعة والجودة ومنها : البدء بالذكرى والحنين وهذا الحديث تستعذبه الآذان وتميل إليه النفس ، وهو ذو صلة وشيجة بالغرض الأصلي من القصيدة وهو مدح آل سلمى حيث إنه قضى بينهم أجمل أيام صباه ، ومن ثمَّ ففي ذكره لهذه الأيام وحنينه إليها مدخل لمدح هؤلاء القوم الذين قضى بينهم تلك الذكريات .

ومن مقومات براعة الاستهلال في البيت كذلك الاستفهام المتكرر الذي لفت الانتباه والأسماع ، ولذا قيل : (توفير الوسائل التي تجعل صدر المصراع الأول قادراً على إمالة النفوس ، وقادراً على أن يبدأها بما تهفوا إليه ، وأن يهيئها لما يريد أن يقوله ، وأن يوفر لها ما تستعذبه الآذان من لفظ حسن مسموع ، ومن دقة ولطافة في المعاني التي تثير الشجو كالمناجاة والتذكر ، وأن يضيف إلى ذلك من معاني القلوب ما يستثيرها كالاستفهام والتعجب والتودد .)[١]

كذلك من مقوماتها أيضاً البناء التركيبي الواحد لشطري البيت ، حيث بنى كل شطر على استفهام ، يليه مسند يشتمل على جار ومجرور يليه مسند إليه .

---

(١) تقريب منهاج البلغاء د / محمد محمد أبو موسى ص / ١٦٤ مكتبة وهبة الطبعة الثانية ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م .

والتصريع بين كلمتي (فند) و (ردد) وهو مما يستحسن حتى أن أكثر الشعر صرع البيت الأول منه . (١)

ولم يكتف الشاعر بهذين الاستفهامين في مطلع القصيدة بل أردفهما باستفهام ثالث فقال :

أمْ هَلْ يُلاَمَنَّ بَاكٍ هَاجَ عَبرَتَهُ بِالحِجْرِ إِذْ شَفَّهُ الوَجْدُ الذِي يَجِدُ ؟

وهذا الاستفهام مفيد للنفي أيضاً والبيت يؤكد معنى البيت الذي سبقه .

والمتأمل لكلمات هذا البيت يجد فيضاً من الحب لنا ، أن نلاحظ تعبيره بـ (هاج) وما يدل عليه من وجود الدموع منه قبل ذلك ، وأنها قريبة الذرف والسيلان .

كما عبَّر بالفعل (شفَّ) وما فيه من تشديد ينبئ عن شدة هذا الوجد بقلبه ، وكررت (أم) فأفادت الإضراب الانتقالي ، وكرر الاستفهام بـ (هل) بعدها لتحقيق هذا الاستفهام حيث لم يكتف بدلالة (أم) عليه . (٢)

وأسند الفعل (شفَّ) إلى (الوجد) عن طريق المجاز العقلي الذي علاقته السببية لبيان مدى قوة هذا الوجد وشدته .

---

(١) ينظر الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ٦/ ١٢٢ تحقيق د / محمد عبد المنعم خفاجي دار الجيل – بيروت الطبعة الثالثة .

(٢) ينظر مغى اللبيب عن كتب الأعاريب لجمال الدين بن هشام الأنصاري ص/٦٥ تحقيق د / مازن المبارك ومحمد على حمدالله راجعه / سعيد الأفغاني دار الفكر – بيروت الطبعة الأولى١٤١٢هـ / ١٩٩٢م .

ثم وصف الوجد بقوله : (الذي يجد) للتفخيم والتعظيم والتهويل لهذا الوجد الذي يحس به بين ضلوعه وحناياه ، وذلك لأن الشيء لا يخبر عنه بنفسه ، فلا يقال : عذبني ألمي الذي أتألمه ، ولا يوصف بما هو معلوم له دون ذكر ، فلا فائدة من قولي : عذابي الذي أتعذب به ، وإنما حسن هذا هنا لأن به نوعاً من الإبهام المراد الذي يجعل نفس المخاطب تذهب فيه كل مذهب ، ومنه قول الله – عز وجل – :

﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ﴾ (١)

وحذف المفعول في قوله : (الذي يجد) والأصل أن يقول : الذي يجده لإثبات المعنى في نفسه للفاعل ، وكأن هذا الوجد صار له ، متأصلاً فيه وثابتاً له لا ينفك عنه .

وبعد ما نفى الشاعر أن يكون هناك عيب في تذكر أيام الصبا ، وأنه لا ينبغي أن يلام من بكى لتذكر أيام قضاها مع من أحب انتقل من هذه القضايا الكلية إلى ذكر المعنى الجزئي الخاص به ، وتلك طريقة ومذهب معتمد بين الشعراء ، ولذا قيل : (إن المذهب المعتمد هو ما تكون معاني الفصول فيه مؤتلفة من الجزئية والكلية لحسن موقع الكلام به من النفس .) (٢)

---

(١) سورة طه آية (٧٨) .

(٢) تقريب منهاج البلغاء ص / ١٧٣ .

والمعنى الجزئي الخاص بالشاعر الذي انتقل إليه هو قوله في البيت الثالث :

أَوْفَى عَلَى شَرَفٍ نَشْزٍ فَأَزْعَجَهُ قَلْبٌ إِلَى آلِ سَلْمَى تَائِقٌ كَمِدُ

وهذا البيت شديد الصلة بالبيت الأول إذ يفسر كيف هاجت الذكرى وانبعثت من مكمنها لتشفه وتحرق قلبه .

وجملة (أوفي) نعت (لباكٍ) في البيت قبله ، وجاءت كلمة (باكٍ) نكرة وإن كان يقصد الشاعر نفسه لإحداث نوع من الإبهام المراد ، وهذا الإبهام يراد به بيان شدة حاله وما هو فيه من شوق وكمد فلا يحتاج مع هذه الحال أن ينص ويذكر أنه أراد نفسه ، ومنه قول البحتري : (١)

لئن صدفت عنا فربت أنفس صوادٍ إلى تلك العيون الصوادف

فأراد بقوله (أنفس) نفسه ، فأبهم للمبالغة وادعاء أن ذلك معلوماً مدلولاً عليه بحاله فلا يحتاج إلى تصريح .

وبعد أن رمى الشاعر بنظره تجاه ديار آل سلمى من فوق الشرف الذي أوفى عليه وجد قلبه ينبض ويفيض بالحب لهم فقال :

فَأَزْعَجَهُ قَلْبٌ إِلَى آلِ سَلْمَى تَائِقٌ كَمِدُ

---

(١) ديوان البحتري عني بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه / حسن كامل الصيرفي ص / ١٣٩١ دار المعارف الطبعة الثالثة .

فتلك الفاء مؤذنه بسرعه تأثر القلب وشدة خفقانه إثر صعوده إلى هذا المكان وإشرافه من عليه .

وفي لفظ (أزعجه) استعارة مكنية ، حيث يصور الشاعر قلبه بإنسان يتألم ويصرخ من شدة الحرقة والوجد والكمد ، ثم حذف المشبه به وترك لازماً له وهو (أزعجه) .

وفي هذا إشارة إلى : أن قلبه لم يعد متحملاً لوعة الفراق، وأن الشاعر لم يعد هو الآخر يطيق قلبه الذي بين ضلوعه .

ولذا نكَّر كلمة (قلب) فأبان أن قلبه صار قلباً مبهماً منكراً لا يعرفه ولا يعهده بسبب ما به من ألم وحرقه ووجد .

وقدَّم الجار والمجرور (إلى آل سلمى) على متعلقة (تائق كمد) للدلالة على التخصيص فهم دون غيرهم الذين يشتاق لهم قلبه ، ويتوق إلى لقائهم .

ووصف قلبه بقوله : (تائق كمد) وقد أحسن في الوصف حيث ترقى من الأدنى إلى الأعلى ، ثم إن في إسناد التوقان والكمد إلى القلب مجاز عقلي علاقته الآلية ، وفيه إشارة إلى مدى تعلقه بهم وشغفه إلي لقائهم .

ثم إن الشاعر في هذا المطلع متأثر بقول أوس بن حجر : [١]

---

(١) ديوان أوس بن حجر تحقيق وشرح د/ محمد يوسف نجم
ص / ٣٩
دار بيروت للطباعة والنشر – بيروت ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

هَلْ عَاجِلٌ من متاعِ الحيِّ منظورُ؟ أم بَيْتُ دَومةَ بَعْدَ الإلفِ مَهجورُ ؟

أَم هَل كَبيرٌ بَكَى لَم يَقضِ عَبرَتَهُ إثرَ الأحبةِ يومَ البينِ مَعذورُ؟

فالمتأمل المطلعين يجد أن بناءهما التركيبي متقارب حيث البدء بالاستفهامات المتوالية بـ (هل) والانتقال فيها بين المعاني بـ (أم) .

فبينما نجد زهيراً يتحدث عن ذكراه لأيام الصبا التي قضاها مع آل سلمى ، و ينفى أن يكون هناك من يكون في مقامه هذا ولا يذرف الدموع على تلك الذكرى حتى ولو كان كبيراً لأن ذلك مما يوجبه الوفاء بذكر الأحبة.

نجد أوس بن حجر يتمنى لقاء الأحبة ولو كان هذا اللقاء عاجلاً من متاع الحي ، ثمَّ تتوالى بعد ذلك الإنكارات حيث ينكر أن يرى بيت دومة مهجوراً بعد أن كان ينعم بالإلف والسكن ، كما ينكر أن يبكى الكبير إثر الأحبة لأن ذلك مما لا يعذر فيه ؛ لأنه عاش وجرب وخبر الحياة كما أنه يتنافى مع وقاره وشيبته .

والمدقق يلحظ أن المقام مختلف فزهير يصرح بأن البكاء واجب لأنه وفاء بحق العشرة والبكاء ليس بكاء ظعائن ولكنه بكاء على أيام الصبا التي جمعته مع هؤلاء القوم الكرام فحقيق عليه أن يذكرهم في كل حين ، وأن يذرف الدمع كلما انتابته الذكرى .

أمَّا أوس فيرى البكاء منقصة وعيباً وخاصة إن كان من الكبير الطاعن في السن ؛ لأنه يتنافى مع شيبته أن يقف ويودع الظعائن ويبكي على إثر

فراقهن وخاصة لأن ذلك يتعاضد ويتآزر مع الهجاء الذي نال به بعد ذلك من بنى برد حيث يقول [١] .

قَوْمٌ لِئَامٌ وفي أعناقِهم عُنُفٌ وسَعيُهُم دُونَ سعيِ النَّاسِ مبهورُ

وَيلُ أمِّهِم مَعشَراً جُمَّاً بيوتُهُمُ مِنَ الرِّماحِ وفي المعرُوفِ تَنكيرُ

فأراد أن ينوه من بداية القصيدة إلى أن مثلهم لا يبكى عليه ولا يعار اهتماما لخبثهم ودناءتهم وحقارتهم فمثله لا يأبه بمثلهم ، ولا يؤثر فيه فراقهم فهو رفيع المنزلة عظيم المكانة فأين هم منه ؟

وبهذا تآزر كل من المطلعين مع الغرض الأصيل في القصيدتين ، وكان في كليهما براعة استهلال إذ أشارا ولوحا بمضمون القصيدة وغرضها الأصيل من أول بيت ، ولذا يقول شيخنا الدكتور محمد أبو موسى : (وقد رأيت الشاعر يضمر غرضه في كل ما قال مما نسميه تسامحاً مقدمة ، وأن حديث الصاحبة والديار والرحلة والناقة كل ذلك بمثابة المنوال الذي ينسج الشاعر عليه غرضه ببراعة ويقظة ولطف حيلة ، وأن كل كلمة وكل تركيب وكل صورة وكل حدث وكل حركة من حيوان أو التفاتة كل ذلك من صميم الغرض ، حتى إنه خيل إلى أن الصاحبة والديار والرحلة والناقة والوحش وغير ذلك مما نراه يتكرر في الشعر كل ذلك من طرق الإبانة في الشعر .) [٢]

---

(١) ديوان أوس بن حجر ص/ ٤٤

(٢) الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء د/ محمد أبو موسى ص١٢ مكتبة وهبة الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م

المبحث الثاني

الشوق إلى اللقاء

مَتَى تُرَى دَارُ حَيٍّ عَهْدُنَا بِهِـــمُ حَيْثُ التَقَى الغَوْرُ مِنْ نُعْمَانَ وَ النُّجُدُ ؟

لَهُم هَوًى مِنْ هَوَاناَ مَا يُقَرِّبُنَا مَاتَتْ عَلَى قُرْبِهِ الأَحْشَاءُ وَالكَبِدُ

إِنِّي لِمَا اسْتَوْدَعَتْنِي يَوْمَ ذِي غُدُمٍ رَاعٍ إِذَا طَالَ بِالْمُسْتَوْدَعِ الأَمَدُ

المعنى العام :

بعد أن أبان الشاعر عن ذكرياته وحنينه لأيام الصبا التي قضاها مع آل سلمى أتبع ذلك ببيان مدى اشتياقه لهم وشدة الرغبة في رؤيتهم ومدى تعلق قلبه بهم ، وأنه راع لعهودهم وأسرارهم التي استأمنوه عليها مهما طال الزمان .

التحليل البلاغي :

بدأ الشاعر هذا المقطع أيضاً بالاستفهام فقال :

مَتَى تُرَى دَارُ حَيٍّ عَهْدُنَا بِهِمُ

لم يقل : متى أرى ؟ ولكنه قال : متى تُرَى ؟ بالبناء للمجهول للتلطف في الحديث عن ديار المحبين ؛ لأنه يريد أن يبين عن أن ظهورها ووضوح مكانها بحيث يراها من معه هو المهم والسؤال عنه ، أمَّا أن يراها هو فهي لا تغيب عن خاطره أصلاً ، وهو يراها في كل حين ، وتتمثل أمامه بكل سبيل.

فلو قال : متى أرى ؟ فكأنها غائبة عنه ، وهو غير متذكر لملامحها فهو يريد الرؤية كي يتذكرها ، ولكنه قال متى تُرَى ؟ لأنه يتذكرها تمام التذكر وهي لا تغيب عنه .

وهكذا يعلمنا زهير كيف يتحدث المحب عمن أحب ، حيث ينبغي أن يكون الحديث فيه تلطف وتأدب وحرص من المتكلم حتى لا يشعر المخاطب بشيءٍ من الجفوة والقسوة أو غير ذلك من كلامه حتى وإن كان غير مقصود.

وجاء الاستفهام بـ (متى) مفيداً للاستبطاء ، ومعرباً عن مدى المعاناة من طول الانتظار ، وهكذا يمر وقت الفراق على المحبين ثقيلاً بطيئاً، ويحس خلاله ببعد المكان وثقل الزمان .

كما أن في هذا الاستفهام جذبا لانتباه السامعين ، ونحسُّ من خلاله باستغاثة ملهوف يريد أن يسمع صوتاً ولو من بعيد يبشره بقرب اللقاء .

والمراد بـ لفظ (دار) في البيت القاطن بها من الأحبة والخلان و الأصدقاء ويدلل على صحة ذلك أنه قال بعدها : متى ترى دار حي عهدنا بهم ،ولو كان يقصد الدار نفسها لقال : متى ترى دار حي عهدنا بها ، وجاء التعبير هكذا عن طريق المجاز المرسل الذي علاقته المحلية ، أو أن تكون رؤية الديار كناية عن رؤية أهلها عن طريق الكناية عن نسبة ، وفي التعبير بذلك المجاز إشارة إلى مدى حنين الشاعر وشدة شغفة وشوقة إلى رؤية هؤلاء القوم حيث بلغ به الشوق مبلغا عظيماً فصار مشتاقاً إلى كل ما يحيط بهم من ديار ورمال وجبال .

وجاء التعبير بـ (دار) مفردة ، والأصل أن يقول (ديار) لأن في التعبير بالإفراد إشارة إلى مدى تماسك هؤلاء القوم وترابطهم ، وإلى كونهم أبناء أب واحد ، وجميعهم يربطهم ذلك النسب الشريف وهو نسبهم إلى جدهم قيس عيلان .

ومما يدل على احتفاء الشاعر بهم تحديد موضعهم ومكانهم الذي شهد أيام الصبا فقال :

عَهْدُنَا بِهِمُ حَيْثُ التَقَى الغَوْرُ مِنْ نُعْمَانَ وَ النُّجُدُ ؟

وهو بهذا يحدد مكانهم تحديداً دقيقاً لأصحابه، فلم يقل هم عند وادي النعمان ،أو هم على بعد ليلتين من عرفات ، ولكنه وصف مكانهم وحدده ، فقال : هم في نهاية وادي النعمان عند ملتقاه بالغور ، وهذا يشعرنا باهتمام بالغ من الشاعر بهم .

وجاء التعبير بقوله : (عهدنا) للإشارة إلى مدى حفاوتهم به وإكرامهم له فقد احتفوا به أيَّما احتفاء ، وأنزلوه منزلة علية القوم وكبرائهم بالرغم من حداثة سنه حينئذٍ .

ثم إنا نجد هنا سؤالاً يفرض نفسه وهو :

لِمَ قال : متى ترى دار حي عهدنا بهم حيث التقى الغور من نعمان والنجد ، ولم يقل متى ترى دارهم ؟ ، فلِمَ كل هذا الإطناب ؟

سبق أن أشرت إلى أن الشاعر حدد مكانهم تحديداً دقيقاً وهو بذلك يرسم بين عيني أصحابه تلك الأماكن وهذه الخلفيات التي كانت مسرح ذكريات أيام

الصبا التي قضاها مع هؤلاء القوم من خلال ذكر ما كان يحف بهم من رمال ووديان وجبال وديار وغيرها .

ولذا يقول د / يوسف خليف : (وقد جرى العرف الفنى في هذه المقدمة على ذكر أسماء المواضع التي تقع بينها الأطلال ، وتحديدها تحديداً جغرافياً دقيقاً ، وهي ظاهرة ترتبط – من ناحية – بما هو ثابت ومقرر بين الباحثين من واقعية الشعر الجاهلي ، كما يرتبط – من ناحية أخرى – بنفسية الشاعر الجاهلي الذي تمثل هذه المواضع قطعة من نفسه ، ففيها عاش أيامه الجميلة ، وفوق رمالها خلف قلبه وشبابه ، فهي مواضع غالية عليه ، حبيبة إلى نفسه ، وهو لذلك وفِيٌّ لها ، متشبث بها .) [١]

ثم إن في ذكر جملة : (عهدنا بهم حيث التقى الغور من نعمان والنجد) إشارة إلى بعد ذلك العهد ، وأنه قد حدث من أمد بعيد ، وبرغم ذلك فهو يمنى النفس أن يجدهم كما كانوا في مكانهم ذاته الذي عهدهم عليه ، وأن يكونوا على هيئتهم يوم تركهم بلا تغيير ولا تبديل ؛ فذلك سيسعده أيَّما سعادة وسيملأ قلبه بالبهجة ؛ لأن من شأنه أن يعيد أيام الصِّبا ويردها إلى سابق عهدها قبل أن يتركهم ويرحل عنهم ، تلك الأيام التي بدأ بها في أول القصيدة وتمنى أن تعود وترجع .

ثم أبان الشاعر وصرح بمدى حبهم وودهم فقال :

---

١٥) دراسات في الشعر الجاهلي د/ يوسف خليف ص / ١٢٧ دار غريب – القاهرة .

لَهُم هَوًى مِنْ هَوَاناَ مَا يُقَرِّبُنَا مَاتَتْ عَلَى قُرْبِهِ الأَحْشَاءُ وَالكَبِدُ

وبذلك البيت أجاب الشاعر عن كل ما أثارته الأبيات السابقة من تساؤلات في النفوس وهي : ما سبب لهفته بهم ، وشغفه عليهم ، وشدة تعلقه بهم ؟ وعليه يكون بين هذا البيت وبين ما قبله شبه كمال اتصال .

وقد أودع الشاعر في هذا البيت من البراعة والجودة البيانية ما جعله من أعمق أبيات القصيدة وأحسنها ، وهو واسطة العقد في هذا المطلع ، ولنا أن نتأمل ونتحسس مواطن جماله وأسباب حسنه وهي كثيرة ، حيث بنى كلامه على التجريد فقال : **لَهُم هَوًى مِنْ هَوَاناَ**

حيث انتزع الشاعر من حبه وهواه هوى آخر جعله سبباً في تألم شديد لقلبه وكبده ، وهو دائم مستقر لا يبرح بالقرب ولا بالبعاد .

وفي البيت كذلك تتميم في قوله (على قربه) أضفى على المعنى مبالغة حسنة حيث جعل الحب سبباً في عدم القرب ، والمعنى يكون مقبولاً لو قال : تقطعت الأحشاء والأكباد على البعاد ، لكنه أراد أن يضفى على المعنى مزيداً من المبالغة ؛ لأنه إذا كان هذا هو حاله مع القرب فكيف يكون حاله على البعاد ؟! وهكذا يكون حال المحب دائم الشوق إلى من يحب في كل حال .

كما أن في كلمة (ماتت) مجاز مرسل ، حيث إن المراد بها هنا (تألمت وتوجعت) ، و إنما عبر عن التألم بالموت ليبين عن مدى شدة هذا الألم وتلك الأوجاع التي أحرقت كبده وآلمت قلبه أيما إيلام عن طريق المجاز المرسل الذي علاقته الملزومية .

وفصل الشاعر بين شطري البيت إذ الشطر الثاني : (ماتت على قربه الأحشاء والكبد) بينه وبين الشطر الأول شبه كمال اتصال ، لأنه لما قال : لهم هوى من هوانا ما يقربنا ، أثار ذلك سؤالاً وهو : كيف لا يكون هذا الهوى الشديد سبباً في القرب ؟ ، فأجاب عن ذلك بالشطر الثاني وهو أن القرب كان سبباً في تقطع الأحشاء والأكباد .

وعطف (الكبد) على (الأحشاء) من قبيل عطف الخاص على العام ، وخصَّها الشاعر بالذكر مع أنها داخلة في عموم الأحشاء ؛ لأن الكبد أشرف الأعضاء و لا يخلص إليه إلا أشد الإيلام والأوجاع . (١)

وكثيراً ما يذكر الشعراء الكبد في مقام بيان شدة الوجد والحرقة بسبب الحب ومن ذلك قول عنترة بن شداد : (٢)

فبالله ياريحَ الحجازِ تنفسي على كبدٍ حَرَّى تذوبُ مِنَ الوجدِ

ويقول أيضاً : (٣)

---

(١) ينظر لسان العرب لابن منظور مادة : كبد دار المعارف

(٢) شرح ديوان عنترة للخطيب التبريزي ص / ٤٩ قدم له ووضع هوامشه وفهارسه / مجيد طراد دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة الأولى ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م .

(٣) المصدر السابق ص/٨٣ .

ياعبلُ نارُ الغرامِ فِي كَبِدِي ترمِي الفؤادَ بِأسهُمِ الشَّرَرِ

وقول أسماء المرية : (١)

أجِدُ بَردَهَا أو تَشفُّ مِنِّي حَرَارَةٌ عَلَى كَبِدٍ لَم يَبْقَ إِلاَّ صَمِيمُهَا

وقول جران العود : (٢)

إِذَا هَبَّتِ الرِّيحُ مِن نَحوِ أرْضِكِمُ وَجَدتُ لَهَا بَرْداً عَلَى كَبِدي

وقول جميل : (٣)

ألَا تَتَّقِينَ اللهَ فِي قَتلِ عَاشقٍ لَهُ كَبِدُ حَرَّى عَلَيكِ تَقَطَّعُ ؟

وغير ذلك الكثير والكثير ، والبحث عن أعضاء الإنسان وخاصة الأعضاء الشريفة كالوجه والصدر والقلب والكبد بحث له قيمته العلمية ، وهو بحث لا يزال مطوياً ، والمتأمل في كلام العرب يجد أنهم قد استعملوا كل عضو من هذه الأعضاء في مقام اقتضاه وناسبه .

ثم دلل على إخلاص الود لهم فقال :

---

(١) الأمالي لأبي على القالي ١٨١/٢ عني بوضعها وترتيبها / محمد عبد الجواد الأصمعي دار الكتب المصرية الطبعة الثانية ١٣٤٤هـ / ١٩٢٦م .

(٢) الصناعتين لأبي هلال العسكري ص/٢٢٣ تحقيق د/ مفيد قميحة دار الكتب العلمية – بيروت .

(٣) شرح ديوان جميل بثينة شرحه وقدم له / مهدي محمد ناصر الدين ص / ٤٨ دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م

إِنِّي لِمَا استَوْدَعَتْنِي يَوْمَ ذِي غُذُمٍ رَاعٍ إِذَا طَالَ بِالْمُسْتَوْدَعِ الأَمَدُ

وهذا البيت ذو صلة وثيقة بالبيت الأول الذي في مطلع القصيدة في قوله : (هل في تذكر أيام الصبا فند) لأن يوم ذي غذم هو أحد هذه الأيام التي يتذكرها ، ويتمنى رجوعها .

وبذلك يتضح مدى تماسك فصول القصيدة وترابطها ، وتظهر مدى عناية الشاعر على إحكام قصيدته ، ولا يستطيع ذلك كل شاعر ولكن من كان في مثل طبقة زهير من الشعراء .

وفصل الشاعر بين هذا البيت والبيت قبله لما بينهما من كمال اتصال حيث إنه بمنزلة التوكيد المعنوي له ؛ لأن رعاية السر وحفظه مؤكد ومقرر لجملة (لهم هوى من هوانا) ومن ثمَّ فكلا البيتين يقرر معنى تغلغل حب أولئك القوم في قلب الشاعر.

وبدأ الشاعر هذا البيت بالتوكيد بـ (إنَّ) رغبة منه في تقوية مضمون كلامه عند المخاطب وتقريره في نفسه وإن كان غير منكر له ، وليفصح عن حب تمكن بالقلب فهو يقرر تلك الحقيقة ، ويبين عن كونها آكدة في نفس قائلها أيضاً .

والتعبير بـ (استودعتني) على صيغة الاستفعال ، وقول الشاعر (راعٍ) ، والتعبير بالاسم الموصول (ما) وما فيه من إبهام وغموض يدل كل ذلك على أن ما استودعوه لديه من الأمور كانت أموراً عظاماً ، لا تستودع ولا يؤتمن عليها إلا من كان جديراً بالثقة وأهلاً للوفاء بالأمانات ، وصادقاً في عهوده فلا يتغير بتغير الأزمان وتقادم العهود ، وهذا يدل على مدى مكانته

عند أولئك القوم ، وأنه بالرغم من حداثة سنه إلا أنه كان مستودع أسرارهم ، وذا مكانة مرموقة فيهم ، فكيف لا يشتاق إليهم ويحن ويهفوا إلى أيامه التي قضاها بينهم ؟!

والمراد بكلمة (راعٍ) في البيت أي (حافظ وكاتم) وجاء التعبير عن الكتمان بالرعاية عن طريق المجاز المرسل الذي علاقته اللزومية ، لبيان مدى تعهده لسرهم وحفظه له ، فهو دائم التذكر له وبالرغم من ذلك فهو دائم الحذر من التفوه أو الخطأ بأن يخرج منه شيء يسبقه اللسان إليه ، فالإنسان كلما كان حريصاً على الشيء كان ذاكراً له وهذا أدعى لحفظ السر وأبلغ من التعبير بالكتمان .

وحذف جواب الشرط في قوله : (إذا طال بالمستودع الأمد) لدلالة ما تقدم عليه ، والتقدير : إذا طال بالمستودع الأمد فإني راعٍ لما استودعتني يوم ذي غذم .

وحذف الجواب وتقدم ما يدل عليه وهو قوله : (راعٍ) لأن الشاعر حريص على بيان حبه لقوم آل سلمى ، ووفائه بعهدهم ، ورعايته لأسرارهم فقدم ما هو أوثق صلة بهذا الغرض .

وجاء التقييد بالشرط : (إذا طال بالمستودع الأمد) لبيان شدة رعايته لأسرارهم ، لأن الرعاية والحفظ يظهران مع طول الأمد ؛ لأنه كلما طال أمده وتقادم عهده قد تملُّ النفس من حفظه ، أو قد تحدث النفس المرء بالإفشاء ، أو قد تتغير نفسه تجاه من يحفظ سره ، أو غير ذلك من الأسباب الداعية للإفشاء ، ولكن الشاعر مع طول الأمد وتقادم العهد نراه كما هو لا تحدثه

نفسه بذلك ، بل يظل على العهد الذي قطعه معهم يوم استأمنوه على عهودهم وأسرارهم ، ولذا جاء التقييد بأداة الشرط (إذا) الدالة على الجزم بوقوع الشرط ومع هذا الجزم بالوقوع نراه على عهده ورعايته وهذا دال على صدق محبته وإخلاص وده لهم .

المبحث الثالث

بيان ما بينهما من بعد مسافة وطول سفر

إِنْ تُمْسِ دَارُهُمُ عَنَّا مُبَاعِدَةً فَمَا الأَحِبَّةُ إِلاَّ هُمْ وَ إِنْ بَعُدُوا

يَا صَاحِبَيَّ انْظُرَ وَ الغَوْرُ دُوْنَكُمَا هَلْ يَبْدُوَنَّ لَنَا فِيمَا نَرَى الجُمُدُ ؟

هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ مِنْ نَجْدٍ وَسَاكِنِهِ مَنْ قَدْ أَتَى دُوْنَهُ البَغْثَاءُ والثَّمدُ

المعنى العام :

لا يزال الشاعر في تلك الأبيات يقرر حبه لآل سلمى ، ويبين أن ما حال بينهم إلا بعد السفر وعظم الشقة ، وأخذ ينادي صاحبيه و يسألهما ليقررا ما قال ويؤكداه .

التحليل البلاغي :

عاد الشاعر ليصرح بالمحبة لهم مرة ثانية فقال :

إِنْ تُمْسِ دَارُهُمُ عَنَّا مُبَاعِدَةً فَمَا الأَحِبَّةُ إِلاَّ هُمْ وَ إِنْ بَعُدُوا

فهذا البيت شديد الصلة والارتباط بقوله :

لَهُم هَوًى مِنْ هَوَانَا مَا يُقَرِّبُنَا مَاتَتْ عَلَى قُرْبِهِ الأَحْشَاءُ وَالكَبِدُ

لأن كلاً من البيتين فيه تصريح بالمحبة وتلفظ بها ، لكن الشاعر لِمَ عاد وصرح بالمحبة مرة ثانية بعد أن ذكرها قبل ؟

وكأن الشاعر يريد أن يعتذر عما بينهم من بعاد بما بينهم من محبة عظيمة وود كبير

ثم إن هذا البيت يعد توكيداً معنوياً للبيت قبله ، ولذا فصل بينهما لكمال الاتصال فهو يؤكد كسابقه المحبة ، ويقررها ، ويدلل عليها .

وجاء التقييد بأداة الشرط (إن) في موضع أدة الشرط (إذا) في قوله: (إن تمس) ، وقوله : (إن بعدوا) وهو على يقين ببعدهم وبعد ديارهم ، ولكنه أراد ألا يعترف بذلك البعد لبيان قربهم من فؤاده ، واستقرارهم بقلبه وللإشعار بأن المسافة بينهما مهما طالت وبعدت فهي هينة قريبة لما يترتب عليها من نعيم بلقاء الأحبة ، وسعادة برؤيتهم .

وقد أحسن الشاعر في إسناد البعد إلى ضمير الديار ، ولم يسند البعد إليهم حيث قال : (ديارهم عنا مباعدة) ، ولم يقل : (بعدوا عنا) للتلطف والتأدب معهم ، حيث لم يرد أن يسند البعد صراحة إليهم لما في ذلك من الجفوة في الخطاب ومن ذلك قول الشاعر : [١]

إِذَا سَئِمَتْ مُهَنَّدَهُ يَمِينٌ لِطُولِ الَحمْلِ بَدَّلَهُ شِمَالَا

حيث قال (يمين) بالتنكير للتلطف والتأدب في الخطاب ، إذ لو قال : (يمينه) لكان فيه نسبة السآمة إلى يمين الممدوح ،فكره ذلك فنكر . [٢]

---

(١) المطول ص / ٢٣٥ .

(٢) ينظر مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لأبي العباس أحمد بن محمد بن محمد بن يعقوب المغربي ٢٢٨/١ تحقيق د / خليل إبراهيم خليل دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م .

وعندما أسند البعد إليهم صراحة في آخر البيت عندما رد عجز البيت على صدره لم يقيده بالجار والمجرور كما فعل في صدر البيت حيث قال في الصدر : (ديارهم عنا مباعدة) ، وقال في العجز : (وإن بعدوا)

كما أن في التقييد بالجار والمجرور (عنا) وتقديمه على متعلقه (مباعدة) إشعار بمدى حزنه على هذا البعاد ، وأن هذا الشعور خاص به لشدة حبه لهم و اشتياقه لرؤيتهم .

ويلحظ أنه قال : (إن تمسى) والديار تمسى وتصبح مباعدة عنه ، ولكنه خصَّ المساء بالذكر لأن من شأن المساء مع حلول الظلام وطول السفر أن يضعف الأمل ، فإذا ما تنفس الصباح ، وبدا أول ضوء في النهار تجددت الرغبة ، وقوى الأمل ، عاد الرجاء للنفس في اللقاء ، ويظل الأمل يحدوه ، ويستحثه حتى يمسى .

ثم ذكر جواب الشرط فقال : (فما الأحبة إلا هم)

وبنى جوابه على أسلوب القصر بطريق النفي والاستثناء قصر صفه على موصوف حيث قصر المحبة عليهم دوان سواهم ، وهو قصر حقيقي ادعائي ، وكأن الشاعر لا يعتد بحبه لغيرهم لأنه إذا قورن بحبه لهم فكأنه غير موجود أصلاً لقلته بجانبه ، وضآلته بجواره .

كما أن هذا الجواب قد دل على الجواب للشرط الثاني (إن بعدوا) ، والتقدير : و إن بعدوا فما الأحبة إلا هم ، وهذا التكرير لجواب الشرط بالذكر مرة وبالحذف أخرى فيه تأكيد لمحبته لأولئك القوم وعظم مودته لهم .

وتلك براعة من الشاعر وحسن تجويد يدل على صنعة عالية في الشعر إذا جعل جواب الشرط واسطة عقد يربط بين أول الكلام ومنتهاه ، كما زاد الكلام لحمة وارتباطاً برد العجز على الصدر .

و جاء التقييد بالشرط (وإن بعدوا) لإفادة التتميم حيث أفاد المبالغة في بيان شدة الحب لهم ؛ لأنه إذا كان هذا هو حاله على البعاد فكيف يكون مع القرب ؟!

ومما يشهد كذلك ببراعته وحسن صنعته ما أبدعه في البيت الثاني من هذه القصيدة في قوله : أم هل يلامن باكٍ هاج عبرته بـــالحجر إذ شـــفه الوجد الذي يجد

فكلمة (الوجد) فاعل للفعل (هاج) ، وكذلك فاعل للفعل (شفَّه) وقد أَخَّر الفاعل بعد هذين الفعلين حتى لا يترهل الكلام بالتكرار ، فأتى على مراده بأسلوب محكم ينم عن عقلية تملك أدواتها ، ومثل ذلك الإحكام للتراكيب لا يتأتى إلا لمن كان في مثل طبقة زهير من الشعراء الفحول .

وبعد ما أشار الشاعر إلى بعد ديار آل سلمى أخذ يقرر صاحبيه بهذا البعد فقال :

يَا صَاحِبَيَّ انْظُرَا وَ الغَوْرُ دُوْنَكُمَا هَلْ يَبْدُوَنَّ لَنَا فِيمَا نَرَى الجُمُدُ؟

فبدأ كلامه بالنداء فقال : (يا صاحبي) ، ثم اتبعه بالأمر (انظرا) لتأكيد التنبيه على بعد الغاية ، وإيقاظ الهمم ، وشحذ العزائم لتستعد بقوة وعزيمة ورغبة شديدة ، ولذا قيل : (هذا والنداء يصحب – غالباً – الأمر

والنهي والاستفهام ، وكأنه يعد النفس ويهبؤها لتلقي تلك الأساليب ، ولذا فهي تتقوى به ، لأن النداء يوقظ النفس ، ويلفت الذهن ، وبنية المشاعر ، فإذا ما جاء بعده الأمر أو النهي أو الاستفهام صادف نفساً مهيأة يقظة ، فيقع منها موقع الإصابة حيث تتلقاه بحسٍ واعٍ وذهن منتبه .) (١)

والمتأمل يجد أن كلمة (صاحبي) جاءت مثناه ، وكثر خطاب الاثنين في كلام العرب ، وعلله التبريزي بقوله : (لأن الرجل أدنى أعوانه اثنين راعي إبله وراعي غنمه ، وكذلك الرفقة أدنى ما تكون ثلاثة .) (٢)

أو أن الخطاب لرفيق واحد لا رفيقين ، وذلك من أساليب العرب أن تخاطب الواحد مخاطبة الاثنين . (٣)

ولذا قيل : (وإنما ذلك كلام العرب لأن أقل رفقة عندهم ثلاثة ، فلهذا قالوا : الواحد شيطان والاثنان شيطانان ، والثلاثة رفقة ، وربما يخاطب الواحد بخطاب الاثنين والجماعة تفخيماً .) (٤)

---

(١) علم المعاني د/ بسيوني عبد الفتاح فيود ١٢١/٢ مؤسسة المختار – القاهرة الطبعة الأولى ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م .

(٢) شرح المعلقات السبع تأليف / أبي عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني ص/١٣ لجنة التحقيق في الدار العالمية – بيروت ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م

(٣) ينظر المصدر السابق ص/ ١٣ .

(٤) شرح ديوان أبي الطيب المتنبي المنسوب لأبي العلاء المعري (معجز أحمد) ٣ /١٤ تحقيق د / عبد المجيد دياب الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة الثانية ٢٠١٣م .

ولعل ذلك يشير إلى مدى صعوبة الرحلة وطول السفر التي تتطلب أن يعان على اجتيازها بالرفقة الكثيرة ،ولذا قيل : (والأمر الذي لا شك فيه أن ظهور رفيقين مع الشاعر على مسرح الأحداث في هذه المقدمة إنما هو ميراث من الشعراء الأول المجهولين تعبيراً طبيعياً عن ظاهرة طبيعية ترتبط بما تفرضه البيئة الصحراوية على كل مسافر فيها من احتياط لمفاجأتها غير المتوقعة ، وحرص على توفير شيء من أسباب الأمان والاطمئنان في رحلة في أعماق المجهول تكتنفها المخاوف ، وتحيط بها الأخطار .) [١]

ثم اتبع ذلك بالاستفهام فقال :

هَلْ يَبْدُوَنَّ لَنَا فِيمَا نَرَى الجُمُدُ ؟

والاستفهام تقريري ينقل المخاطب من حيز الظن إلى حيِّز المشاهدة والبيان لأنه يطالب مخاطبة بأن يمعن النظر ، ويرمي ببصره من فوق هذا المكان المشرف العالي والأرض أمامه منخفضة غائرة إلى ديار القوم حيث لا مانع يحجب الرؤية من جبال أو هضاب ، فإذا به لا يلمح لها أثراً ، وسيقر حينئذ ببعدها ، ويذعن لذلك لا محالة . كما نكاد نستشعر في هذا الاستفهام معنى التمني أيضاً حيث يمني النفس بأن يرى أصحابه ديار القوم فيفرح بقرب اللقاء .

وبذلك تكون وسائل التنبيه قد تعددت في هذا البيت بدءاً بحرف النداء (يا) الذي للبعيد وأصحابه ليسو ببعيدين عنه ، فهم رفقاء الرحلة والعون

---

(١) دراسات في الشعر الجاهلي د/ يوسف خليف ص / ١٢٦ .

عليها ، ثم الأمر بالفعل (انظرا) ، ثم ارداف ذلك بالاستفهام ، وكل هذا جاء ليعلن عن كون الشيء المنبه عليه جديراً بالعناية والاهتمام ، ويتطلب من وفور الهمة وقوة العزيمة ما يتطلب .

ثم صرَّح بعد ذلك ببعد ديار القوم فقال :

هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ مِنْ نَجْدٍ وَسَاكِنِهِ مَنْ قَدْ أَتَى دُوْنَهُ البَغْثَاءُ والثَّمَدُ

وهذا البيت قفل جيد محكم لما سبقه ، حيث بدأ بالذكرى والحنين لأيام الصبا وبيان شدة الوجد والتوق للقاء الأحبة ، ثم أردفه ببعث الهمة في أصحابه ليعينوه على طول السفر وتكبد المسافات الطوال من أجل النعيم باللقاء ، وقد أحسن وأجاد فيه إذ التصريح بالبعد سيكون مدخلاً لوصف الناقة التي تحمله إلى أحبائه بعد ذلك ، فهو بهذا الصنيع يحكم نسج قصيدته، وينتقل بين فصولها انتقالا هادئاً سلساً غير قلق ولا نابٍ ودون مفاجأة للمخاطب ، وإنما ينتقل به إلى ما قدَّم له ، وهيأ إليه .

والبيت شديد الصلة بما بعده ، شديد الصلة بما قبله إذ به أجاب الشاعر عن كل التساؤلات التي أثارها في نفس المخاطب من أول القصيدة ، لأن شدة الحنين لأيام الصبا ، والرغبة في رجوعها وشدة التوق للقاء الأحبة والنزوع إلى كل ما أحاط بهم من ديار ورمال كل ذلك من شأنه أن يثير تساؤلات في النفس وهي :

وما المانع من اللقاء ؟ وما الحائل بينك وبين ديارهم ؟ ، فجاء هذا البيت ليصرح ببعد الديار ، ويجيب عن كل تلك التساؤلات .

ثم إذا تأملنا بيانه عن هذا البعد بقوله : هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ مِنْ نَجْدٍ وَسَاكِنِهِ

حيث عبر باسم الفعل الماضي (هيهات) ومعناه (بعُدَ) [١] ، وكرره مرتين للدلالة على شدة التحسر والتحزن على هذا البعد .

واسم الفعل (هيهات) من الألفاظ التي تقوم في هذا المقام خير قيام لما تشتمل عليه من حرف (الهاء) الحلقي وكأنه زفرة حرَّى من قلب شفه الوجد .

وتكرارها يضفي مزيداً من الإشعار بالأسى والحزن ، ولنا أن نتأمل قول جرير وهو يتوجع من بعد أحبابه وأخلائه عنه بقوله : [٢]

هَيهَاتَ هَيهَاتَ العَقِيقُ وَمَنْ بِهِ هَيهَاتَ خِل بالعَقِيقِ نُواصِلُه

وزيدت (مِنْ) الجارة بين اسم الفعل (هيهات) والفاعل (نجد) للتأكيد على بعد الشقة وتقرير هذا المعنى في نفس المخاطب ، ومن ثمَّ يوطن نفسه عليه ، وليكون متهيأ مستعداً لرحلة شاقة طويلة .

والدليل على زيادة (مِنْ) الجارة هنا قول الله تعالى : ﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾ [١] حيث زيدت (اللام) الجارة بين اسم الفعل (هيهات) وفاعلها الاسم الموصول (ما) . [٢]

---

(١) ينظر النحو الوافي أ/ عباس حسن ٤ / ١٤٦ دار المعارف الطبعة الحادية عشرة .

(٢) ديوان جرير تأليف / محمد إسماعيل عبد الله الصاوي ص / ٤٧٩ المكتبة التجارية الكبرى مطبعة الصاوي

وزاد المعنى تأكيداً فوق تأكيد بالشطر الثاني فقال :

مَنْ قَدْ أتَى دُوْنَهُ البَغْثَاءُ والثَّمَدُ

والمراد بقوله : (من قد أتى) من يرحل إليهم أو يأتيهم فعبَّر بالماضي (أتى) عن المستقبل (يأتي) لبيان مدى تملك تلك الرغبة من قلبه ، وتمكنها من فؤاده والإعراب عن قوة العزيمة بداخله ، ومن ثمَّ فقد جعل من الارتحال إليهم وإتيانهم أمراً حاصلاً مقطوعاً به لا يقبل الشك أو التردد فهو كالواقع الذي حدث بالفعل .

وفصل الشاعر بين شطرى البيت لما بينهما من كمال اتصال إذ يعد الشطر الثاني بمنزلة التوكيد المعنوي للشطر الأول ، فكلاهما يؤكد أمر البعد وطول السفر .

والمتأمل لتلك الأبيات من مطلع القصيدة إلى البيت السابق يجد فيها من العذوبة والرقة الكثير والكثير ، وقد أجاد الشاعر فيها أيما إجادة ، وبالرغم من أنها خلت من الغزل أو البكاء على الديار كعادة الشعراء في مقدمات قصائدهم إلا أننا نستشعر رقه الغزل وعذوبة بكاء الديار وإن لم يكن هناك غزل أو بكاء للديار .

ولكن نكاد نحس وراء تلك الأبيات هوى دفينا وحباً قديماً لا يزال يتعلق به الشاعر ويذكره ، ويحن إليه ويشتاق ، وإن كان قد أبدع في أن واراه خلف

---

(١) سورة المؤمنون آية ٣٦ .

(٢) ينظر النحو الوافي ٤ / ١٥٦ .

الأبيات وجعله غائماً بعض الشيء حيث عبر بـ (آل سلمى) وأراد فوق القيام بحق العشرة والصحبة الإشارة والتعريض بمحبوبته التي فيهم تأدباً وتلطفاً ولعل ذلك يعلل عذوبة الألفاظ ورقتها .

الفصل الثاني
وصف الناقة والرفقاء

المبحث الأول

وصف الناقة

إِلَى ابْنِ سُلْمَى سِنَانٍ وابْنِهِ هَرِمٍ تَنْجُو بِأَفْتَادِهَا عَيْدِيَّةٌ تَخِدُ

فِي مُسْبَطِرٍّ تَبَارَى فِي أَزِمَّتِهَا قُتْلُ المَرَافِقِ فِي أَعْنَاقِهَا قَوَدُ

مُعْصَوْصَبَاتٍ يُبَادِرْنَ النَّجَاءَ بِنَا إِذَا تَرَامَتْ بِهَا الدَّيْمُومَةُ الجَدَدُ

عَوْمَ البقَوادِسِ قَفَّى الأَرْدَمُونَ بِهَا إِذَا تَرَامَى بِهَا المُغْلَوِلبُ الزَّبِدُ

المعنى العام :

بعد ما أبان الشاعر في الأبيات السابقة عما يربطه بآل سلمى من ذكريات وأيام هانئة رغدة ، وأبان عن شدة شوقة إلى لقائهم خلص بعد ذلك لوصف مطيته وهي ناقته التي تعينه على مواصلة السير وقطع تلك المسافات الطوال من أجل النعيم باللقاء ، فأخذ يصف قوتها وصلابتها وجمالها وسرعتها .

التحليل البلاغي :

بعد أن أشار الشاعر في الأبيات السابقة إلى بعد الشقة وطول السفر انتقل وتخلص لوصف ناقته القادرة على القيام بتلك الرحلة الشاقة الصعبة فقال :

إِلَى ابْنِ سُلْمَى سِنَانٍ وابْنِهِ هَرِمٍ تَنْجُو بِأَفْتَادِهَا عَيْدِيَّةٌ تَخِدُ

وقد انتقل الشاعر وتخلص إلى هذا المعنى عن طريق ذكر اسم الممدوح وقومه فقال : (إلى ابن سلمى سنان وابنه هرم) ، وهذا انتقال جيِّد بارع من الشاعر إذ إنه جعل العلة وراء وصف الناقة أنها سبب في الوصول إلى الممدوح ، وبذلك جعل هناك لحمة قوية بين معاني القصيدة وتآلفاً تاماً بين أجزائها حيث ذكر آل سلمى قبل ذلك عند ذكراه أيام الصبا ثم كرر اسمهم هنا ليكون وصلة ولحمة قوية بين معاني القصيدة .

ولذا نراه يقدم الجار والمجرور (إلى ابن سلمى) على متعلقة (تنجو) لإفادة التخصيص ، وبه يشير الشاعر إلى علو مكانة الممدوح ، وأنه حقيق دون سواه بأن تتحمل المشاق من أجله ، وبأن تضرب أكباد الإبل إليه لما له من شرف مكانة وعلو منزلة .

كما أننا إذا تأملنا هذا التخلص وجدناه متلاحماً أشد التلاحم ومترابطاً أشد الارتباط بما قبله وبما بعده ، إذ إن قوله : (إلى آل سلمى) واسطة العقد بين جملتين أحدهما في البيت السابق في قوله : (من قد أتى دونه البغثاء والثمد) ، والثانية في هذا البيت في قوله : (تنجو بأقتادها عيدية تخد) ، حيث إن الغاية هي الوصول إلى آل سلمى ، والناقة تنجو بأقتادها نحوهم وتخد ، وبذلك استطاع الشاعر أن يتخلص تخلصاً في غاية الجودة والبراعة ، وأن يجعل كلامه في غاية التلاحم والالتئام فجمع بين حسنيين .

وقال أستاذنا وشيخنا الدكتور محمد أبو موسى : (وكان زهير الذي أدَّب كعباً وعلمه الشعر يأخذ بمذهب الاقتضاب مع أنه كان يجيل نظره في القصيدة ويراجعها وينقحها ويصقلها حتى سميت قصائده بالحوليات ، وسمى صاحب

الحولى المحكك ، وكأن الانتقال المفاجئ كان يكون مقصوداً عنده راجع انتقاله من ذكر دمنه أم أو في إلى ذكر الظعائن ترى بينها قطعاً ظاهراً وجزاً بارزاً .) (١)

وزهير وإن كان أخذ بالاقتضاب في معلقته كما قال أستاذنا فإنه لم يكن الاقتضاب مذهباً له في جميع قصائده ، وهذه القصيدة التي بين أيدينا وقصائد أخرى له من أكبر الأدلة على ذلك ومنها قوله : (٢)

بِمُلْتَئِماتٍ كالخَذَارِيفِ ثُوبِلَتْ ... إلى جَوشَنٍ خَاظِى الطَّرِيقةِ مُسْنَدِ

كأنَّ دِماءَ المُؤسَداتِ بنَحْرِها ... أطِبَّةُ صِرفٍ في قَضِيمٍ مُصرَّدِ

إلى هَرِمٍ تَهجِيرُهَا وَوَسِيجُهَا ... تَرَوّحُ من لَيْلِ التِّمَامِ وتَغْتَدِى

إلى هَرِمٍ سَارَتْ ثَلاثاً مِنَ اللِّوَى ... فنِعْمَ مَسِيرُ الواثِقِ المُتَعَمَّدِ

سَواءٌ عَلَيهِ أيَّ حِينٍ أتَيْتَهُ ... أسَاعَةَ نَحْسٍ تُتَّقَى أمِ بِأسْعَدِ

فانتقال الشاعر هنا انتقال جيد بارع حيث أخذ يصف ناقته وبعد ما فرغ من وصفها قال أن سيرها في الهاجرة وإسراعها وغدوها ورواحها من أجل الوصول إلى الممدوح ثم أخذ يستطرد في مدحه .

ومن ذلك أيضاً : (١)

---

(١) قراءة في الأدب القديم د/ محمد محمد أبو موسى ص/ ٦١ مكتبة وهبة الطبعة الثانية ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م

(٢) ديوان زهير بن أبى سلمى ص/ ٣٩ ، ٤٠ .

حَتَّى إِذَا مَا انجابَ عَنْهَا لَيْلُهَا وَتَلَدَّدَتْ بالرَّمْلِ أيَّ تَلَـدُّد

وَرَأَيْتَهَا نَكْبَاءَ تَحْسِبُ أنَّهَـا طُلِيَتْ بِقَارٍ أو كُحَيْـلٍ مُعْقَـدِ

وَتَيَمَّمَتْ عُرْضَ الفَلاَةِ كَأنَّهَـا غَرَّاءُ مِن قِطعِ السَّحَابِ الأقْهَدِ

وإلى سِنَانٍ سَيْرُهَا وَوَسِيْجُهَا حَتَّى تُلاقِيَـهُ بِطَلْقِ الأسـعُدِ

ومنـه كذلك قولـه : (٢)

صَحَا القلبُ عن سَلمَى وَقَدْ كَادَ لاَ يَسْلُو وأقفرَ مِـنْ سَلْمَـى التَّعَانِيُق فالثِّقْـلُ

وَقَـدْ كُنْتُ مِـنْ سَلْمَى سِنِيْنَاً ثَمَانِيَـاً عَلَى صِيرِ أمرٍ مَا يَمُرُّ وَمَا يَحْلَـو

وَكَنْتُ إِذَا مَـا جِئْتُ يَوْمـاً لِحَاجَــةٍ مَضَت وَأجَمَّتْ حَاجَةُ الغدِ مَا تَخْلُـو

وَكُلُّ مُحِبٍّ أحْدَثَ النَّـأيُ عِنْــدَهُ سُلُوّ فُـؤَادٍ غَيْرَ حُبِّكِ مَـا يَسْلُـو

تَأوَّبَنِـي ذِكْرُ الأحِبَّـةِ بَعْدَمَــا هَجَعْتُ وَدُونِى قُلَّةُ الحَـزْنِ فالرَّمْلِ

فنرى شاعرنا في تلك الأبيات متيماً أشد التتيم بمحبوبتـه التـي لا تنقضـى حاجتـه منهـا ، ولا يتغيـر قلبـه ببعده عنهـا ، ويأتيـه ذكراهـا لـيلاً فيمنـع نومـه ويؤرقـه ويكشـف غطـاءه ، و هنـا ينتقـل الشـاعر إلـى ذكـر ممدوحـة ، ويحسـن ويبدع في التخلص فيقول : (٣)

---

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى ص / ٤٧ .

(٢) ديوان زهير بن أبي سلمى ص / ٨٣ .

(٣) ديوان زهير بن أبي سلمى ص / ٨٣ ، ٨٤ .

فَأَقْسَمْتُ جَهْداً بالمَنَازِلِ مِنْ مِنَىً وَمَا سُحِقَتْ فِيهِ المَقَادِيمُ والقَمْلُ

لأَرْتَحِلَنْ بِالفَجْرِ ثُمَّ لأَدْأَبَنْ إِلى اللَّيلِ إلى أن يُعَرِّ جَنِى طِفْلُ

إِلَى مَعْشَرٍ لَمْ يُورِثِ اللُّؤمَ جَدُّهُم أَصَاغِرَهُم وكُلُّ فَحْلٍ لَهُ نَجْلُ

فأبان الشاعر في تلك الأبيات عن شدة مغالبته لنفسه ، وكيف ينازعه هواه كي يعيده ويثنيه عما عزم عليه ، ومضى إليه وهو الارتحال إلى أولئك الكرام ، فيقسم أنه لن يتوانى عن مواصلة الرحلة حتى يصل إلى ممدوحيه ، فأحسن التخلص ، وبرع في الانتقال أيما براعة .

ونكتفي بذلك كي يعود بنا الحديث إلى القصيدة فنرى الشاعر قد بنى الشطر الأول على البدل فقال : إلى ابن سلمى سنان وابنه هرم

فكلمة : (سنان) بدل من (ابن سلمى) ، وكلمة (هرم) بدل من (ابنه) فأتى بالبدل مرتين مع أن البدل هو المقصود بالحكم ، والمبدل منه في حكم المنحى المطروح ، ولكن الشاعر أتى به هنا ليحدث نوعاً من التوضيح بعد الإبهام ، ولذا يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني: (وجملة الأمر أنه ليس إعلامك الشيء بغتة غفلاً ، مثل إعلامك له بعد التنبيه عليه والتقدمة له ، لأن ذلك يجرى مجرى تكرير الإعلام في التأكيد والإحكام ، ومن هنا قالوا : إن الشيء إذا أضمر ثم فسر ، كان ذلك أفخم له من أن يذكر من غير تقدمة إضمار .) [١]

---

(١) دلائل الإعجاز ص / ١٣٢ .

كما أراد أن ينوه بالبدل إلي شرف الأصل وعظم الفرع ، وعراقة الحسب وسمو ما تولد عنه .

وعبَّر بالفعل المضارع (تنجو – تخد) وهو يصف الناقة كي يستحضر أمام الأعين صورة تلك الناقة النجيبة وهي تسرع في نشاط وجد على الرغم مما تحمله من أثقال وذلك لما تتصف به من قوة وصلابة .

وفصل بين (تنجو بأقتادها عيدية تخد) ، ولم يقل : (تنجو بأقتادها عيدية و تخد) ، لما بين الجملتين عن كمال اتصال إذ أن جملة (تخد) بيان لجملة (تنجو بأقتادها) حيث أبانت عن سير هذه الناقة وسرعتها ، فهي لا تسير أي سير ، ولا تسرع أي إسراع ، ولكنه إسراع بنشاط وجد حيث توسع الخطو ، وترمي بقوائمها كمشي النعام ، ومن شأن هذا البيان بعد الإبهام أن يجعل المعنى في النفس متمكنا فضل تمكن ؛ لأنها صادفته وهي مشتاقة إليه متيقظه متطلعه ، ولذلك وقعه في النفس ، وأثره الحسن عليها .

وقيِّد الفعل (تنجو) بالجار والمجرور في قوله : (بأقتادها) للتتميم ، لإفادة المبالغة في بيان نشاطها وقوتها ؛ لأنه إن كان هذا هو حالها من السرعة والخفة وهي محملة بكل تلك الحمول والأقتاد ، فكيف حالها إذا كانت غير محملة بها ؟!

كما نلحظ كذلك حذف الموصوف في قوله : (عيدية) والتقدير : (ناقة عيدية) والإتيان بالنعت نكرة لإفادة التعظيم والتفخيم هذا ، فضلاً عمَّا يفيده النسب في عيدية من معنى التشريف ؛ لأن نوق بَنى العِيد نوق نجائب وبذلك أبان الشاعر عن أصالة تلك الناقة وقوتها .

وكانت تزعم العرب أن الإبل العسجدية والعيديه والعمانية إبل ضربت فيها الحوش [١] وقالوا : إن الحوش والحوشية : إبل الجن ، وزعموا : أن فحلاً من فحولها ضرب في إبل لمهرة بن حيدان فنتجت النجائب المهرية من تلك الفحول الحوشية فهي لا تكاد يدركها التعب . [٢]

ثم أخذ الشاعر يستطرد في ذكر أوصاف تلك الناقة فقال :

فِي مُسْبَطِرٍّ تَبَارَى فِي أَزِمَّتِهَا ... قُتْلُ المَرَافِقِ فِي أَعْنَاقِهَا قَوَدُ

وصف الشاعر طريق الناقة بأنه (مسبطر) أي في طريق مسبطر ممتد مسرع ، فحذف الموصوف لدلالة الوصف عليه ، والمتأمل يجد أن الشاعر قد أنزل على الطريق وصفاً من أوصاف الناقة ولذا قيل : جمل سبَطر وجمال سبطرات سريعة واسبطرت في سيرها : أسرعت [٣] ، ولكن الشاعر آثر هذا الوصف للطريق للدلالة على سرعة النوق عليه ، وهذا من قبيل المجاز العقلي الذي علاقته المكانية .

ومنه قولنا : طريق سريع ، والسريع ليس الطريق ولكنه السائر عليه، فاسندت السرعة إلى الطريق مبالغة في بيان سرعة السالك له .

---

(١) ينظر العمدة في محاسن الشعر وآدابه للإمام / أبي على الحسن بن رشيق القيراوني ١٦٨/٢ تحقيق د / محمد عبد القادر أحمد عطا دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م .

(٢) لسان العرب مادة : حوش .

(٣) لسان العرب مادة : سبطر .

وقوله : (تباري في أزمتها) نعت (لعيدية) ، وجاء بالجملة الفعلية (تباري) لإفادة تجدد نشاطها وحدوثه مرة بعد مرة ، فكلما طال الطريق ، وترامت بها الصحراء تجدد نشاطها ، وزادت من سرعتها ، وهذا على خلاف ما يحدث مع غيرها لأن من شأن ذلك أن يثبط الهمة ، ويدعو إلى الفتور ، لكنها لاكتمال همتها ونشاطها يكون ذلك باعثاً على تجدد الهمة والنشاط لديها .

وقوله : (في أزمتها) احتراس ، حيث إن الشاعر لما صرح بأنها تنجو ، وتخد وتتبارى ، وعندها من الحمية ما يمنعها أن يسبقها سابق ، ربما يتوهم متوهم أنها قد تنفر وتشرد ولا تستطيع أن يتحكم بها راكبها ، فدفع هذا التوهم بهذا الاحتراس ليبين عن تمام شدتها وصلابتها .

ثم وصفها بقوله أيضاً : (في أعناقها قود) ولكن جاء النعت هذه المرة بالجملة الاسمية ، فكشف عن ثبوت هذه الصفة لها وهو طول أعناقها ، ودل ذلك على نجابتها ، وأنها جمعت بين القوة وبهاء المنظر .

كذلك المتأمل يجد الشاعر عبَّر بالجمع في موضع الإفراد عن طريق المجاز المرسل الذي علاقته العموم أو العامية [١] في قوله : (أزمتها ، فتل، المرافق ، أعناقها) والمراد : (زمام ، فتلاء ، مرفق ، عنق) لبيان عظم تلك الناقة واكتمال قوتها وجدها ، فإن الذي يراها وهي مسرعة في ذمامها وعلى ظهرها الأقتاد نشيطة سريعة يخيل إليه بسبب حركتها المتوالية المتتابعة أن

---

(١) ينظر حاشية الشيخ محمد الإنبابي على رسالة الشيخ محمد الصبان ص /٢١٨. الطبعة الأولى بالمطبعة الأميرية – بولاق – مصر ١٣١٥هـ

.

الذي في عنقها ليس زماماً واحداً ، ولكنه أزمة ، وأن الناقة ليست بعنق واحد ولكنه أعناق ، وليس لها مرفقان فحسب ولكنهما مرافق ، ولا شك أن ذلك أدل على جدها ووفور همتها .

وفصل الشاعر بين هذه النعوت المتوالية لإفادة اجتماع هذه الصفات في الموصوف وكأنها صفة واحدة ، وأن كل صفة من هذه الصفات تحدد وترسم جزءاً من صورة تلك الناقة .

ثم ساقه الحديث إلى وصف ناقته مع نوق الأصحاب فقال :

مُعْصَوْصَبَاتٍ يُبَادِرْنَ النَّجَاءَ بِنَا إِذَا تَرَامَتْ بِهَا الدَّيْمُومَةُ الجَدَدُ

فحذف المسند إليه ، والتقدير : نوقنا معصوصبات ، والسر وراء حذفه هو تعينه لدلالة الكلام عليه ، فلا ينصرف الذهن إلا له ، كما أن فيه تركيزاً على الوصف ، وحذف ما يترهل به الأسلوب ، أو يثقل على نفس السامع .

وقوله : (يبادرن النجاء) جملة في غاية التركيز والإيجاز ، إذ الأصل: يبادرن مبادرة ، وينجون نجاءً ، ولكن جاء هذا الحذف لتركيز العبارة وتصفيتها ، و للتأكيد إذ الثانية تأكيد للأولى ، ولا شك أن الجملة آكد من المفرد في الدلالة على المعنى ، ولذا قيل : (وإنما جاء بمصدر فعل متروك، ومخالفة المصدر لفعله تعني أن مصدراً قد سكت المتكلم عنه ، ودل عليه فعله المذكور ، وأن فعلاً سكت عنه المتكلم ، ودل عليه المصدر المذكور ، فلو

قلت : استقام إقامة ، كأنك قلت : استقام استقامة ، وأقام إقامة ، وهذا وجه من وجوه بناء الكلام التي تكثر فيها المعاني ، وتقل فيه الألفاظ .) [١]

ثم أتي بحذف آخر وهو حذف جواب الشرط في الشطر الثاني في قوله: (إذا ترامت بها الديمومة الجدد) ، والتقدير : إذا ترامت بها الديمومة الجدد يبادرون النجاء بنا ، وحذف هنا لدلالة ما تقدم عليه ، وكأن الشرط هو أصل بناء الجملة ، وإنما عدل إلى هذا الذي جاء ليقدم قوله : (يبادرن النجاء) لأنه هو أصل المعنى إذ فيه بيان لبعد الشقة وصعوبة الرحلة وقوة هذه الناقة وشدة الشوق إلى الممدوح . [٢]

الديمومة الجدد كناية عن موصوف وهو الفلاة التي يداوم السير فيها لبعدها ، والتي لا أعلام فيها ولا طريق ولا ماء ولا أنيس فهي منكرة مجهولة متباعدة الأطراف . [٣]

وصور الشاعر وعورة مسالكها فقال : (إذا ترامت بها الديمومة الجدد) فصور هيئة هذه الفلاة المتباعدة الأطراف وهي تتقاذف تلك النوق ، وتسلمها من مكان إلى مكان ، بهيئة القوم يترامون بالسهام ونحوها ، والجامع الهيئة الدالة على وجود شيء يتقاذف بقوة بين أطراف متعددة ، ثم حذفت هيئة المشبه ، واستعيرت هيئة المشبه به له على سبيل الاستعارة التمثيلية .

---

(١) الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء د/ محمد محمد أبو موسى ص / ٢١١

(٢) ينظر قراءة في الأدب القديم ص / ٦٦ .

(٣) لسان العرب ، مادة : دوم .

ثم ختم وصف تلك النوق بقوله :

عَوْمَ البقَوادِسِ قَفَّى الأَرْدَمُونَ بِهَا إِذَا تَرَامَى بِهَا المُغْلَولِبُ الزَّبِدُ

فعدل من التعبير بالجملة الاسمية في البيت السابق إلى التعبير هنا بالجملة الفعلية إذ إن قوله : (عوم القوادس) مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره : تعوم عوم القوادس ، وجاء العدول ليرسم ويستحضر أمام الأعين هيئة ذلك السير السريع السهل المتتابع .

وحذف المسند والمسند إليه هنا يشعرنا بهذه السرعة الخاطفة التي هي حال سيرهم ، وما هم عليه من عجلة من أمرهم ، وأنهم يسابقون الزمان في سبيل الوصول إلى غايتهم .

كما رسم صورة هذا السير أيضاً من خلال التعبير بالفعل (تعوم) فأبان عن مدى سهولة هذا السير وسلاسته و تتابعة في رشاقة وخفة ، وذلك عن طريق الاستعارة التصريحية التبعية . (١)

ثم أتم رسم الصورة عن طريق التشبيه التمثيلي ليعطينا صورة مكتملة الأجزاء والأبعاد حيث شبه هيئة تلك النوق وهي تجوب الفلاة وتقطعها وهم يقودونها بسهولة ويسر ، بهيئة سفينة عظيمة تمخر عباب البحر ذى الأمواج

---

(١) حيث شبه سير نياقهم بالعوم ، بجامع السهولة والتتابع والسلاسة في كل ، ثم حذف المشبه ، ثم استعارة العوم للسير ، ثم اشتق من العوم بمعنى السير السهل المتتابع يعوم بمعنى بسير في سهولة ويسر وتتابع على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

المتلاطمة وعلى متنها الملاحون الحاذقون المتمرسون وهذا التمثيل من أتم أنواع التشبيه التمثيلي لأنه قابل لتفكيك الهيئتين إلى أجزاء مفردة ، حيث يشبه الأصحاب بالملاحين ، وتشبه النوق بالسفن ، وتشبه الفلاة المترامية الأطراف بالبحر الهائل المتلاطم الأمواج . ولا شك أن تلك براعة من الشاعر استطاع من خلال تصويره أن يحدد المعالم والأشخاص و أن يرسم أمام الأعين صورة في غاية الروعة والدقة للنوق والصحراء المهلكة و الأصحاب .

ثم لنا بعد ذلك أن نلحظ ذلك التشابه التركيبي بين هذين البيتين ، حيث بدأهما بالحذف ، ومجيء الشطر الأول فيهما مركب من جملتين ، والشطر الثاني من جملة مبدوءة بالشرط الذي حذف جوابه الدَّال عليه ما قبله ، وهذا دال على مدى براعة الشاعر وتمكنه من الأساليب والتراكيب حيث يستطيع أن يصوغ المعنى في أكثر من قالب لفظي مع تشابه القالب التركيبي ، و لذا قيل : (أن تشابه التركيب في القصيدة يورثها شكلاً متقارباً ، وسمتاً متناسقاً ، وقد لحظت ذلك في سور القرآن الكريم ، وراجع المصحف وبين عينيك القصد إلى البحث في تقارب المباني ، وستجدها أظهر من أن تخفى ، وهو كذلك في الشعر ، وإن كان باباً مسهواً عنه .) [١]

---

(١) الشعر الجاهلي د / محمد أبو موسى ص / ٢٩٢ .

المبحث الثاني :

وصف الخلان والأصحاب رفقاء الرحلة

بِفِتْيَةٍ كَسُيوفِ الهِندِ يَبْعَثُهُـم هَـم فَكُلُّهُـم ذُو حَاجَـةٍ يَقِـدُ

مَنَّهُم السَّيُر فَانآدَتْ سَوَالِفُهُـم وَمَـا بِأَعْنَاقِهِـم إِلاَّ الكَـرَى أَوَدُ

إِنِّي لَأَبْعَثُهُم وَاللَّيْـلُ مُطّـرِقٌ وَلَم يَنَامُوا سِوَى أَنْ قُلتُ : قَدْ هَجَـدوا

إِلَى مَطَايَا لَهُم حُدْبٌ عَرَائِكُهَـا وَقَـدْ تَحَلَّلَ مِـنْ أَصْـلاَبِهَا القَحَـدُ

المعنى العام :

انتقل الشاعر بهذه الأبيات إلى وصف خلانه وأقرانه الفرسان الذين اصطحبهم معه في رحلته ، حيث السفر الطويل الشاق ؛ لأنهم خير عون له في هذه الديمومة الجدد ، وأبان عن حالهم وصدق همتهم وقوة عزمهم على مواصلة الرحلة بالرغم ممالاقوه من عظيم عناءٍ لهم ولمطاياهم .

التحليل البلاغي :

تخلص الشاعر إلى وصف الخلان والأصحاب بعد وصف المطايا فقال :

بِفِتْيَةٍ كَسُيوفِ الهِندِ يَبْعَثُهُـم هَـم فَكُلُّهُـم ذُو حَاجَـةٍ يَقِـدُ

والجار والمجرور (بفتية) متعلق بالفعل المحذوف في البيت السابق والتقدير تعوم عوم القوادس بفتية كسيوف الهند

وبذلك استطاع الشاعر أن يحسن التخلص من الحديث عن النوق إلى الحديث عن الأصحاب بطريقة سلسة مترابطة ومحكمة أشد الإحكام مما يؤكد على براعة الشاعر وعنايته واهتمامه بمقاطع الكلام وقدرته على التخلص والخروج .

وقوله (بفتية كسيوف الهند) كناية عن موصوف وهو الأصحاب ، وإنما عبَّر عنهم بالفتية لبيان أنهم يملكون من القوة والهمة والصلابة ما يؤهلهم على مواصلة الرحلة والوصول إلى غايتهم وهدفهم .

ثم شبههم بسيوف الهند ، والسيف قوة وحسم وحماية ومنعة كما أن فيه إشارة إلى أنهم ماضون بقوة وعزم أكيد على مواصلة الرحلة كالسيف الهندي القاطع الذي لا تثنية ولا تضره كثرة المقارعات والمنازلات والحروب.

وكما أبان عن قوتهم الذاتية أبان عن قوتهم النفسية وعظم الدافع لديهم فقال :

يَبْعَثُهُـم هَـم فَكُلُّهُـم ذُو حَاجَـةٍ يَقِـدُ

فجاء التعبير بالفعل المضارع (يبعثهم) ، و (يقد) لبيان مدى تلك اللهفة وتجدد الرغبة مرة بعد مرة وآناً بعد آن ، فلا يكادون يفترون ، ولا يملون ، وإنما يسيرون على طريق متقد ورغبة متجددة .

وإسناد البعث إلى الهم إسناد مجازي من قبيل المجاز العقلي الذي علاقته السببية ، ونكر ذلك السبب (هَمٌّ) للتفخيم منه وبيان شدة أثره ، ولذا يدفعهم دفعاً ، ويسوقهم سوقاً إلى الممدوح .

وعَبَّر بالبعث دون الإرسال لأن مادة البعث بها معنى السرعة والاندفاع، ولذا قيل : انبعث الشيء وتبعث : اندفع ، وانبعث في السير : أي أسرع.(١)

ولما كانت كلمة (هم) نكرة كانت مشتملة على إبهام ، ولذا اتبعها بالتفسير في قوله :

فَكُلُّهُم ذُو حَاجَــةٍ يَقِــدُ

فالفاء فاء السببية جاءت لتبين عن سبب الهم ، ولتزيل ما به من إبهام.

وقال : (كلهم ذو حاجة) ، ولم يقل (كلهم محتاج) للدلالة على شدة هذه الحاجة والتصاقها بهم ، ولذا قيل : ((ذو) كلمة يتوصل بها للوصف بالأجناس ومعناها (صاحب) ، وهي تشعر بقوة أو وفرة ما تضاف إليه ، فلا يقال : ذو إنصاف إلا لمن كان قوى الإنصاف ، ولا يقال : ذو مال لمن عنده مال قليل .) (٢) كما أن في التعبير بها نوع تأدب وتلطف في بيان حاجتهم ؛ لأنه لو قال : كلهم محتاج لكان فيه نوع من الجفاء مع أصحابه.

ونلاحظ أنه عبَّر بالإفراد في موضع الجمع فقال : (يبعثهم هم) والأصل أن يقول : (تبعثهم هموم) ، كما قال : (كلهم ذو حاجة) والأصل أن يقول : (كلهم ذووا حاجات) ، ولكنه عدل إلى ذلك ليشير إلى أن الرغبة في لقاء

---

(١) لسان العرب مادة : بعث .

(٢) التحرير والتنوير لسماحة الأستاذ الإمام الشيخ / محمد الطاهر بن عاشور ٨/ ٨٦ دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس

الممدوح فاقت عندهم كل رغبة ، وصارت هي هدفهم وغايتهم التي اجتمعوا عليها ، و مضوا في تحقيقها ، فجعلوا الهموم همَّاً واحداً لبيان اتحاد الغاية عندهم وهي وصولهم إلى الممدوح الذي بالانتهاء إليه تقضى كل حاجاتهم .

كما أبانت الاستعارة التمثيلية [١] في كلمة (يقد) عن شدة حميتهم و لهفتهم ، وأنهم يسيرون سيراً متوقداً ملتهباً .

ووصف الشاعر ناقته ونوق أصحابه بالنجابة والقوة ، كما وصف أقرانه بالفتوة ، وكل ذلك دال على صعوبة الرحلة ، كما أنه يشير إلى أن من يقصد الممدوح لا يقصده من أجل ضعف أو فقر ، ولكنه يقصد من أجل عظائم الأمور ، فهؤلاء الفرسان حاجتهم عظيمة وهمهم كبير ولا يستطيع أن يرد عنهم هذا الهم سوى الممدوح ولذا يتجشمون من أجله الصعاب ، ويضربون إليه أكباد الإبل .

ثم أخذ يستطرد في وصف ما لا قوه في رحلتهم فقال :

مَنَّهُم السَّيرُ فَانآدَتْ سَوَالِفُهُم وَمَا بِأَعْنَاقِهِم إِلاَّ الكَرَى أَوَدُ

فأبان عمَّا فعله بهم السير والسفر فقال : (منّهم السير) ، وإسناد المن والإعياء إلى السير من قبيل المجاز العقلي الذي علاقته السببية ، وفيه إبراز

---

(١) حيث شبه نفسه وأصحابه وهم يسيرون بحمية وإسراع ، بهيئة النار المتوقدة الملتهبة فتشتعل بكل ما أتت عليه اشتعالاً سريعا ، والجامع الهيئة الدالة على السرعة و الالتهاب والتوقد في كل ، ثم حذف هيئة المشبه ، واستعار هيئة المشبه به له على سبيل الاستعارة التمثيلية .

لمدى أثر هذا السير والرحلة عليهم ، حيث إن تلك المشقة ما كانت لتلحق بهم ، وتنهكهم كل هذا الإنهاك إلا مع سفر متواصل مستمر لا يكادون يستريحون منه ليلاً أو نهاراً .

ثم أبان عمَّا ترتب عن هذا الإعياء فقال : (فانآدت سوالفهم) فعطف بالفاء ليبين أن تلك الجملة نتيجة عن الجملة السابقة عليها .

وفي لفظ (السوالف) مجاز مرسل علاقته الجزئية حيث عبَّر بالسوالف والمراد الرءوس ، والتعبير بهذا المجاز في غاية الحسن والبراعة حيث جئ به تأدباً كيلا يسند الانحناء والاعوجاج إلى الرءوس وذلك دال على براعة الشاعر البيانية ، ومقدرته على امتلاك ألفاظه وأدواته التعبيرية .

ثم جاء بالشطر الثاني احتراساً عمَّا قد يتبادر إلى الذهن من قوله : (فانآدت سوالفهم) إذ قد يظن ظان أن ذلك الانحناء بسبب ضعف فيهم ، أو ذلة عليهم دفعتهم للخروج ، فقال :

وَمَا بِأَعْنَاقِهِم إِلاَّ الكَرَى أوَدُ

ليدفع هذا الظن ، ويحترس عن هذا المعنى .

وأكد هذا المعنى عن طريق القصر بالنفي والاستثناء ، فقصر اعوجاج أعناقهم على كونه اعوجاجاً بسبب الكرى وقلة النوم ، وهو من قبيل قصر الموصوف على الصفة ، وهو قصر قلب ليغلق الباب على المخاطب من أن يعتقد فيهم عكس ذلك ، والتعبير بهذا الأسلوب فيه تأكيد على كمال شرفهم وطهارة ثيابهم من أي ذلة أو هوان ، فطريق النفي والاستثناء من أقوى طرق

القصر ، ويكون غالباً في المقامات العنيفة ، جهيرة النبرة حين تتشابك مواقف التأثير الوجداني مع الإقناع العقلي . (١)

كما أكد المعنى عن طريق وضع المظهر موضع المضمر ، لأن كلمة (أعناقهم) سبق وأن ذكرها بلفظ (سوالفهم) ، والكلمتان مجاز عن (الرءوس) فكأنه كرر كلمة الرءوس مرتين ، ولكن نلحظ أنه عبَّر بالسوالف عندما أثبت نوع اعوجاج لهم ، وعبَّر بالأعناق عندما نفى كل عيب عنهم ليدلل على مدى شرفه وشرف أصحابه ، وتحرر رقابهم من أي قيد من قيود الخزْى أو الضعف أو الذل أو المهانة .

ولما أبان الشاعر عن شدة إعيائهم كان ذلك مدعى لسؤال وهو : وما هو السبب وراء غلبة النوم عليهم وإصابتهم بهذا الإعياء الشديد ؟، فقال مجيباً عن ذلك :

إِنِّي لَأَبْعَثُهُم وَاللَّيْلُ مُطّرِقٌ وَلَم يَنَامُوا سِوَى أَنْ قُلتُ : قَدْ هَجَدوا

فأجاب بهذا البيت عما أثاره البيت السابق في النفس من أسئلة ، حيث إنه لا يمهلهم وقتاً يستريحون فيه ، فما يكادون أن يهجدوا إلا وأيقظهم ، وأخذ يحثهم ، ويدفعهم نحو مطاياهم والليل داج .

---

(١) ينظر أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية د/ صباح عبيد دراز ص/ ١٦٦ مطبعة الأمانة – بشبرا الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م

وبذلك فقد أجاب عمَّا أثاره البيت السابق عن سؤال في النفس ، ولذا فصل بين البيتين لشبه كمال الاتصال .

وافتتح الجواب بالتأكيد ليدفع عن نفس مخاطبه أي إنكار ، وليبين عن صدق مشاعره وتوقد فؤاده بذلك اللقاء .

ثم جاء التقييد بجملتين حاليتين ، وهما قيدان مهمان في إبراز مشاعر الشاعر و انفعالاته حيث قال :

وَاللَّيْلُ مُطّرِقٌ وَلَم يَنَامُوا سِوَى أنْ قُلتُ : قَدْ هَجَدوا

فالحال الأولى (والليل مطرق) أبانت عن أن الوقت ليس وقت ارتحال ولا سير ، ولكنه وقت راحة ودعه ، كما لنا أن نلاحظ التشديد في كلمة (مطَّرق) وما تبينه عن مدى تراكم الظلمة وشدتها .

والحال الثانية (ولم يناموا سوى أن قلت قد هجدوا) أبانت عن أن أصحابه ظلوا مواصلين السير طوال الليل ، حتى إذا ما أناخوا عيسهم بعد يوم شاق عسير متواصل في الصحراء ، وركنوا إلى الهجود قليلاً سرعان ما أيقظهم ، وهيجهم ليواصلوا سيرهم ورحلتهم .

ولذا عبَّر بالفعل (هجدوا) دون (رقدوا) للإبانة عن يوم متواصل من السير ، واستمرار هذا السير حتى وقت متأخر من الليل ، لأن الهجود هو

النوم آخر الليل [١] بخلاف (رقدوا) التي تدل على النوم في أي وقت من ليل أو نهار . [٢]

وهاتين الحالين أتى بهما الشاعر تتميماً للمعنى ، وبياناً على مدى شوقه إلى اللقاء ، لأنه إذا كان هو حالهم مع تراكم الظلمة وشدة الإعياء وعدم النوم ، فكيف يكون حالهم في غير تلك الحال ؟

وبعد أن أبان عن شدة إعياء الرفقاء والأقران أبان بعده عن شدة إعياء مطاياهم فقال :

إِلَى مَطَايَا لَهُم حُدْبٌ عَرَائِكُهَا وَقَدْ تَحَلَّلَ مِنْ أَصْلاَبِهَا القَصَدُ

وقال (مطاياهم) ولم يقل (مطاياهم) للدلالة على تغير حالها وشدة إعيائها ، وأنها صارت منكرة غير معلومة ، بسبب شدة هزالها ولولا أنها تصحبهم في رحلتهم لما عرفوها .

ولذا قال بعد ذلك (حدب عرائكها) وتلك كناية عن شدة الإعياء و الهزال بسبب مواصلة السفر حيث ظهر وبرز عظم ظهرها ، وأثَّر الحملُ في سنامها وعَرَكه عركاً شديداً .

---

(١) يقول ابن الأعرابي : هجد الرجل : إذا نام بالليل ، وقال غيره : هجد إذا نام ، وذلك كله في آخر الليل . ينظر لسان العرب مادة : هجد

(٢) أمَّا رقد : فيقول الأزهري عنها : الرقاد والرقود يكون بالليل والنهار عند العرب لسان العرب مادة : رقد

ثم جاء التقييد بجملة الحال التي أكدت معنى الضعف والهزال في هذه المطايا فقال :

وَقَدْ تَحَلَّلَ مِنْ أَصْلاَبِهَا القَحَدُ

وتلك الجملة كناية ثانية عن شدة الإنهاك والضعف الذي لحق بها وأن التعب بلغ منها مبلغاً عظيماً ، وأنها لم تعد تملك ما تقوى به على مواصلة السير .

وهنا وبهذا الوصف نجد الشاعر يريد أن يسدل الستار على تلك الرحلة الشاقة التي فعلت به وبأصحابه ومطاياهم ما فعلت ، حيث أبان كيف كانوا في أول الرحلة سيوفاً ماضية هندية ، وكانت مطاياهم معصوصبات تبادر النجاء بهم ، وكانت تعوم عوم القوادس ، وكيف قطعت تلك الفلاة الخافية معالمها ، ثم إذا بهم قد قطعوا الرحلة وأوشكوا على اللقاء وقد منَّهم السير، وانآدت سوالفهم ، و مطاياهم صارت حدبا عرائكها ، وذاب وتحلل كل ما في سنامها من شحم تتزود به في رحلتها .

الفصل الثالث

المدح

المبحث الأول

مدح ابن سلمى سنان وابنه هرم

أقُولُ لِلْقَومِ وَالأَنْفَاسُ قَدْ بَلَغَتْ

دُونَ اللِّهَا ، غَيْرَ أنْ لَم يَنْقُصِ العَدَدُ

سِيرُوا إِلى خَيرِ قَيسٍ كُلِّهَا حَسَباً

وَمُنْتَهَى مَنْ يُرِيدُ الخَيْرَ أو يَفِدُ

فَا ستَمطِروا الخيرَ مِن كَفَّيهِ إِنَّهُمَا

بِسَيْبِهِ يَتَرَوَّى منهما البُعُدُ

مُبارَكُ الاسمِ مَيْمُونٌ نَقِيبَتُه

جَزلُ المَوَاهِبِ مَنْ يُعْطِي كَمَن يَعِدُ

فَالنَّاسُ فَوجَانِ فِي مَعْرُوفِهِ شَرَعٌ

فمنهُمُ صَادِرٌ أو قَارِبٌ يَرِدُ

رَحْبُ الفِناءِ لو أنَّ النَّاسَ كُلَّهُمُ

حَلُّوا إِلَيه إِلى أنْ يَنْقَضِى الأَبَدُ

مَازَالَ فِي سَيْبِهِ سَجْلٌ يَعُمُّهُمُ

مَادامَ فِي الأرضِ من أوتادِها وَتَدُ

فِي النَّاسِ للنَّاسِ أَندادٌ وليسَ لَهُ

فِيهم شَبِيـهٌ وَلا عَـدلٌ وَلا نِـدَدُ

المعنى العام :

لا يزال الشاعر يحث أصحابه على المسير ، وأخذ يصف محاسن الممدوح حتى يستنهض همهم ، ويقوى عزيمتهم ، فذكر أنه من بيت مجد وشرف فهو طيب الأصل ، شريف النسب ، وأنه جواد كريم يشهد له القاصي والداني ، فهولا يغلق بابه ، ولا يرد أحداً خائباً ، ومن كان مثله كان جديراً بأن يبذل من أجل الوصول إليه الغالي والنفيس ، فكيف إذا كان لا شبيه له ولا نظير في دنيا الناس ؟!

التحليل البلاغي :

استطاع الشاعر أن يحسن التخلص والخروج مما هو آخذ فيه من وصف الأصحاب والمطايا وإعيائها إلى المدح ببراعة ، حيث لم يشعرنا بأن هناك نبواً أو انتقالاً ، فقال :

أقُولُ لِلْقَومِ وَالأَنْفَاسُ قَـدْ بَلَغَتْ

دُونَ اللِّهَا ، غَيْرَ أنْ لَم يَنْقُصِ العَدَدُ

سِيرُوا إِلى خَيرِ قَيسٍ كُلِّهَا حَسَباً

وَمُنْتَهَى مَنْ يُرِيـدُ الخَيْرَ أو يَفِـدُ

ففصل بين (أقول للقوم) وما قبله ؛ لأنه بيان لقوله : (إني لأبعثهم والليل مطرق) حيث فسَّر الإبعاث لهم بأنه يقول لهم ما يحفزهم به ، و يشحذ همهم ، ويقوى عزيمتهم ، ويجعلهم يستكملون المسير دون إبطاء ولذا فصل لما بينهما من كمال اتصال .

وعبَّر بالفعل المضارع (أقول) ليستحضر المخاطب تلك الصورة وهو واقف يلهب حمية القوم ، ويدفعهم ، ويحثهم على السير لاستكمال الرحلة .

وهذا البيت هو واسطة العقد بين ما قبله وما بعده ، إذ به تخلص وأجاد ، و أبان كيف أن الإجهاد بلغ بهم مبلغاً عظيماً ، ولذا يقول :

وَالأَنْفَاسُ قَدْ بَلَغَتْ دُونَ اللِّهَا

إذ التقييد بهذه الجملة الحالية أبان عمَّا وصل إليه الركب من التعب والإعياء ، حيث إن المراد بـ (الأنفاس) الأرواح ، وفي التعبير بها مجاز مرسل علاقته اللازمية ، لأن النفس لازم عن وجود الروح في البدن .

وبلوغ الأنفاس دون اللها كناية عن بلوغ غاية المشقة والجهد ، وقد يفهم من تلك الحال أن هؤلاء الفتية قد أشرفوا على الموت والهلاك فجاء بالاحتراس ليدفع هذا الظن فقال :

غَيْرَ أَنْ لَم يَنْقُصِ العَدَدُ

أي أنهم بالرغم مما لا قوة في سفرهم من عناء ومشقة إلا أنهم لم يصابوا بأي أذى أو هلاك ؛ لأنهم أقوياء أشداء اعتادوا على مثل ذلك في أسفارهم ، ولذا فهي كناية عن شدتهم وقوتهم وصلابتهم أيضاً .

ثم أبان بعد ذلك عن قوله الذي كان يحفزهم به ، فقال :

سِيرُوا إِلى خَيرِ قَيسٍ كُلِّهَا حَسَباً

وَمُنْتَهَى مَنْ يُرِيدُ الخَيْرَ أو يَفِدُ

وهذا البيت هو جملة مقول القول في البيت السابق ، ولذا كان البيت السابق هو واسطة العقد كما أشرت قبل ذلك بين ما قبلة ، وما بعده ، واستطاع به أن يتخلص من الوصف إلى المدح .

والبدء بالفعل الأمر (سيروا) فيه حث وإلهاب وتهييج لهم حيث يدفعهم إلى الإسراع ، ويلهب حميتهم حتى يصلوا إلى هدفهم وغايتهم .

والمراد بـ (خير قيس) الممدوح من آل سلمى وهم بنو سنان وابنهم هرم ، فهو كناية عن موصوف ، وينسبون إلى قبيلة من مُضَر العدنانية تسمى بقبيلة قيس عيلان ، وقيس أصل هذه القبيلة ، واسمه : النون بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، وقيس لقبه ، وقد جعل الله في هذه القبلية من الكثرة أمراً عظيماً ، ولكثرة البطون المتفرعة منها جعل في مقابلة اليمانية بأسرها . (١)

سبق وأن أشرت إلى أن الشاعر نَوَّه إلى شرف هذه القبيلة في قوله :

---

(١) ينظر قلائد الجمان في التعريف بقبائل الزمان لأبي العباس أحمد بن على القلقشندي ص/ ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ . تحقيق / إبراهيم الإبياري دار الكتاب المصري الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م

إِلَى ابْنِ سَلْمَى سِنَانٍ وابْنِهِ هَرِمٍ تَنْجُو بِأَفْتَادِهَا عَيْدِيَّةٌ تَخِدُ

فأشار إلى شرف الأصل وعراقة النسب وعظم ما تولد منه ، وهنا نجد الشاعر يقدم ممدوحه ، ويفضله على سائر قومه فقال :

إِلى خَيرِ قَيسٍ كُلِّهَا حَسَباً

وبذلك فهو يترقي بالمعنى على وفق ما يقتضيه المقام ، ولذا جاء بأفعل التفضيل (خير) ، والتوكيد المعنوي بلفظ (كلها) .

ولما مدحه بشرف الأصل ، أتبع ذلك بالمدح بعظم المكانة فقال :

وَمُنْتَهَى مَنْ يُرِيدُ الخَيْرَ أو يَفِدُ

فجعله في قمة المجد ، وغاية الشرف ليشير إلى أن مجده ليس معتمداً على شرف الآباء فحسب ، ولكنه مع ذلك اعتلى قمة المجد بعظيم فعاله وخصاله فهو كناية عن نسبة المجد إليه .

كما نجد أنه صور المجد في قوله : (يريد المجد أو يفد) بملك أو أمير عظيم الشأن يقصده الناس من كل مكان ، ويفدون عليه ، وينزلون عنده ، على سبيل الاستعارة المكنية [١] ليعكس من خلال تلك الصورة منزلة الممدوح ، وانه مقصد للقاصي والداني ، لذيوع مجده ، وعموم فضله .

---

(١) حيث شبه المجد بملك عظيم ذى سلطان ، ثم حذف المشبه به ، وترك لازماً من لوازمه وهو الوفادة عليه وقصده على سبيل الاستعارة المكنية .

وقوله (أويفد) زيادة ختم بها الشاعر بيته على سبيل الإيغال للترغيب والحث على إتيان الممدوح ، والاقتداء به ؛ لأن الوفادة لا تكون إلا على عظيم [١] .

ثم أتى بجواب الأمر (سِيروا) فقال :

فَا ستَمطِروا الخيرَ مِن كَفَّيهِ إِنَّهُمَا بِسَيْبِهِ يَتَرَوَّى منهما البُعُدُ

فأتى في الجواب بفعل الأمر (فاستمطروا) اغراءً لهم ، وحثاً واستنهاضاً لعزائمهم ، حيث إن أفعال الأمر بنبرتها الجهيرة سريعة النفوذ إلى القلب .

ولنا أن نتأمل تلك الاستعارة التمثيلية في قوله : (فاستمطروا) حيث شبه هيئة القوم وهم يطلبون وينتظرون عطاء كفى الممدوح ، بهيئة من يطلب المطر وينتظره من السحاب المتراكم القريب التهطال ، وزاد من التصوير فجعل لممدوحه سيباً وتروية على سبيل الترشيح لتلك الاستعارة وهكذا اكتملت الصورة حيث إن الأمطار الغزيرة تولد عنها أودية وأنهار جارية تصل إلى من هو في غاية البعد عن الممدوح وعبَّر بالكف في قوله : (من كفيه) للإشارة إلى كثرة هذا العطاء ، فهو عطاء يملؤ الكف ، وجاء التعبير بالمثنى للدلالة على عظم النوال حيث يعطي باليمين والشمال .

---

(١) قال الأصمعي : وفد فلان يفد وفادة : إذا خرج إلى ملك أو أمير لسان العرب مادة : وفد

وبعد ما بدأ هذا البيت بالأمر فقال : (فاستمطروا) اتبعه بذكر علته ليكون أعلق بالنفس ، وتكون أطوع له ، وأشد حرصاً على العمل به ولذا قيل : (إن المتكلم إذا طلب من مخاطبه طلباً بأمر أو نهي كانت نفس المخاطب مستشرفة علة ذلك الطلب والباعث على فعله ، فإذا أسعفها المتكلم ببيان العلة ، وذكر السبب اطمأنت إلى الطلب وانصاعت له .) [١] فقال :

إِنَّهُمَا بِسَيْبِهِ يَتَرَوَّى منهما البُعُدُ

ففصل بين شطري البيت لما بينهما من شبه كمال اتصال حيث أجاب بهذا الشطر عمَّا استشرفت نفس المخاطب له ، ولذا نزل منزلة السائل وأكدت له العلة .

وجعل عطاءه سيباً للدلالة على انسياب هذا العطاء وسرعته [٢] وجعله يروى على سبيل الاستعارة المكنية [٣] للدلالة على حسن موقعه وشدة الحاجة إليه .

---

(١) الحركة الأسلوبية د/ عبد الرازق محمد فضل ص / ١٩ .

(٢) فمادة سيب تدل على السرعة ، يقال : ساب الماء يسيب سيباً : جرى ، وساب يسيب : مشى مسرعاً ، وسابت الحية تسيب : إذا مضت مسرعة . لسان العرب مادة سيب

(٣) حيث شبه عطاء الممدوح بالنهر الجاري ، ثم حذف المشبه به ، وترك لازماً من لوازمه و هو الإرواء على سبيل الاستعارة المكنية .

وخص الأبعد بالعطاء لأنهم الأحوج لأن القريبين منه غير محتاجين لهذا بسبب حبه لهم ومودته وجوده بينهم ، ولذا يقول أبو تمام : (١)

الوُدُّ لِلقُربَى ولَكِن عُرْفُهُ لِلأَبْعَدِ الأوطانِ دُونَ الأَقْرَبِ

ولما ذكرشأن الممدوح في الكرم وسخاء النفس والجود اشتاقت نفس المخاطب إلى معرفة أوصافه ، وكأنها سألت : ما خبر هذا الممدوح ؟ وما صفته ؟، فاستأنف الشاعر حديثاً عنه ، وبنى الكلام على حذف صدر الاستئناف (المسند إليه) فقال :

مُبارَكُ الاسمِ مَيْمُونٌ نَقِيبَتُه جَزلُ المَوَاهِبِ مَنْ يُعْطِي كَمَن يَعِدُ

فأجاب عما في نفس المخاطب من استفهامات ، ولذا فصل بين البيت وما قبله لشبه كمال الاتصال .

وبنى الاستئناف على حذف المسند إليه والتقدير : (هو مبارك البيت)، (هو ميمون نقيبته) ، (هو جزل المواهب) ليقطع هذا الكلام عما قبله ، ويستأنف حديثاً جديداً عن الممدوح بهذى المعاني العظام لينبئ عن مدى انفعاله وامتلاء نفسه بها ، ومدى رغبته في إبرازها ، ولذا يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني :(ومن المواضع التي يطرد فيها حذف المبتدأ " القطع والاستئناف " يبدءون بذكر الرجل ، ويقدمون بعض أمره ، ثم يدعون الكلام الأول ، ويستأنفون كلاماً آخر ، وإذا فعلوا ذلك أتو في أكثر الأمر بخبر من

---

(١) ديوان أبى تمام بشرح الخطيب التبريزى ١ / ١٠٣ تحقيق / محمد عبده عزام دار المعارف الطبعة الخامسة .

غير مبتدأ .) [١] ثم أخذ يعدد هذه الصفات التي أراد أن يخلي الساحة أمامها فقال : (مبارك البيت) ، وفيها مجاز عقلي ، حيث أسند البركة للبيت، والمراد بركة من حل فيه من أناس ، والذي سوغ هذا الإسناد علاقة المحلية ، وكأنه يشير بذلك إلى أن البركة قد غمرت البيت ، وصارت تحيط به من كل جانب .

ثم أردف تلك الصفة بصفة أخرى فقال : (ميمون نقيبته) وفيها كذلك مجاز عقلي [٢] ، وأراد أن يبين به عن مدى رجاحه عقله ، وشدة ذكائه وفطنته وأخذ يتبع الصفات للمدح تترى فقال : (جزل المواهب) وفي كلمة (جزل) استعارة تصريحيه أصلية [٣] كشفت عن فضل الممدوح وشدة سخائه ، وأراد أن يخص تلك الصفة بمزيد تأكيد فقال : (من يعطى كمن يعد) ففصل بين تلك الجملة وما قبلها لما بين الجملتين من كمال اتصال إذ الأخيرة بمثابة التوكيد المعنوي للجملة قبلها إذ إن كلا الجملتين يؤكد معنى واحداً وهو عظم كرم الممدوح وجوده .

---

(١) دلائل الإعجاز تأليف الشيخ الإمام / أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوى ص/ ١٤٧ قراءة وعلق عليه / أبو فهر محمود محمد شاكر مطبعة المدني – بالقاهر الطبعة الثانية ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م .

(٢) حيث جعل اليمن واقعاً على النقيبة وهي المشورة ، والمشورة لا تكون ميمونة ، ولكن الميمون هو من أخذ بها ، وعمل بمقتضاها ، ولكنها لما كانت سبباً في اليمن والبركة أسند اليمن إليها على سبيل المجاز العقلي الذي علاقته السببية.

(٣) حيث شبه الكثير بالغليظ بجامع الضخامة في كل ، ثم حذف المشبه واستعير لفظ المشبه به له على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية .

والمتأمل يجد أن الشاعر قلب التشبيه ، فشبه من نال عطاء الممدوح ومواهبه بمن وعده الممدوح بالنوال والعطاء ، والأصل عكس ذلك ، فيشبه من يعده الممدوح بالنوال بمن نال من عطاياه ومواهبه ، لأن المشبه به شأنه أن يكون أظهر وأوضح والمعنى فيه أتم من المشبه ؛ لأن المشبه به كالأصل المستلحق والمشبه كالفرع الملحق . (١)

ولكن الشاعر قلب التشبيه ليوهم أن من يعده الممدوح بالنوال أوثق بالظفر والعطاء من الذي فاز بعطائه ، وذلك للتيقن من صدق الممدوح ووفائه ، وشدة كرمه وسخائه .

والشاعر يلح على تأكيد معنى كرم الممدوح ، لسيتدر بذلك عطاءه ونواله فيقول :

فَالنَّاسُ فَوجَانِ فِي مَعْروفِهِ شَرَعٌ فمنهُمُ صَادِرٌ أو قَارِبٌ يَرِدُ

و (الفاء) هنا للترتيب الذكرى حيث فصلت ما أجمله الشاعر في البيت السابق (٢) **وأبانت جزيل مواهبه وعطاياه .**

---

(١) ينظر عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح للشيخ / بهاء الدين أبى حامد أحمد بن على بن عبد الكافي السبكي ٢/ ١٦٧ تحقيق د/ خليل إبراهيم خليل دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م .

(٢) ينظر مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب لجمال الدين بن هشام الأنصاري ص / ٢١٣ تحقيق د / مازن المبارك و أ / محمد على حمد الله دار الفكر – بيروت الطبعة الأولى ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م

ولم يلق بالبيان مرَّة واحدة ، ولكن زاد من عنصر الإثارة والتشويق فقال : (فوجان) فجاء بالتوشيع الذي قسم به الناس إلى قسمين كبيرين ، فأجمل مرة ثانية ، وأبهم كي تتطلع نفس المخاطب ، وتتشوق إلى معرفة هذين الفوجين ، فقال :

فمنهُمُ صَادِرٌ أو قَارِبٌ يَرِدُ

ففسَّر ما أبهم ، وأبان أن الناس بين أمرين ، إما صادر من نواله ، وإمَّا دان منه أوشك أن ينال ، وبذلك وقع المعنى في النفس أطيب موقع ، وتمكن لديها أفضل تمكن ، ولذا قيل : (وذلك أن في البيان إذا ورد بعد الإبهام ، وبعد التحريك له أبداً لطفاً ونبلاً لا يكون إذا لم يتقدم ما يحرك .)[١]

والبيت كله استعارة تمثيلية ، حيث شبه هيئة أحوال الناس في نوالهم من الممدوح بهيئة الإبل التي صدرت وقد رويت ، أو أشرفت أن ترد فتروى ، بجامع تتابع الجماعات على المحل فتنتفع به ، ثم حذف هيئة المشبه ، واستعار هيئة المشبه به له على سبيل الاستعارة التمثيلية ، وجاءت كلمة (شرع) ترشيحاً لتلك الاستعارة وبياناً لغاية إكرام وراده وضيفاته . [٢]

---

(١) دلائل الإعجاز ص / ١٦٣ ، ١٦٤ .

(٢) وذلك لأن مُورِد الإبل إذ أورد بها الشريعة لم يتعب من إسقاء الماء لها كما يتعب إذا كان الماء بعيداً ، لأن الشريعة لا تحتاج مع ظهور مائها إلى نزع بالعلق من البئر ، ولا جبى من الحوض .

ينظر لسان العرب مادة : شرع

وتلك الاستعارة رسمت أمام الأعين صورة مكتملة بكل أبعادها لما عليه الناس من طمع ، وفرح واستبشار بلقاء الممدوح ، حالهم كحال الإبل التي ترد الماء في إسراع لتنهل وتروى غلتها ، وتذهب ظمأها دون تعب أو مشقة .

وما زال يستطرد ويطنب في بيان كرم الممدوح فقال :

رَحْبُ الفِناءِ لو أنَّ النَّاسَ كُلَّهُمُ حَلُّوا إِلَيه إلى أنْ يَنْقَضِى الأبَدُ

مَازَالَ فِي سَيْبِهِ سَجْلٌ يَعُمُّهُمُ مَادامَ فِي الأرضِ من أوتادِها وَتَدُ

مما يدلل به الشاعر على كرم ممدوحه أنه (رحب الفناء) وتلك كناية عن عظم الجود وغاية الكرم ، حيث إن الكريم لما كان مقصداً للزائرين والنازلين و غيرهم كانت داره لا تخلو من ضيفان ؛ ولذا أعدلهم مكاناً رحباً متسعاً لينزلوا به ،وينيخوا عيسهم ، ويقدم لهم فيه القرى .

وقطع هذا البيت أيضاً واستأنف لبيان مدى اهتمامه بهذا المعني (الكرم) ولإبرازه وتجليته ، ولذا حذف المسند إليه ليسارع إلى ذكر المسند ليكون له وقعه فيطرق الآذان طرقاً ، فيقر لدى المخاطب ، ويتمكن عنده فضل تمكن .

ولما قال في البيت السابق أن الناس من عطاء الممدوح إما صادر أو وارد أثار المخاطب فجعله كأنه سائل عن سبب ذلك وسره .

فأجاب بهذا البيت أن الممدوح عظيم العطاء ، يحب من يأتيه ، وأنه حريص على البذل فأعد لضيفانه المكان الرحب الذي يستريحون فيه ، وما يشتهونه من صنوف القرى ، ولذا فصل بين البيت وما قبله لشبه كمال الاتصال .

وغلف المعنى بغلاف من المبالغة الحسنة في مقام المدح فقال : إن الناس كلهم لو حلو بفنائه لوسعهم جوده ، وعمَّ كل فردٍ فيهم .

وهذا لاشك غلو (١) من الشاعر ، ولكن الذي حسَّنه ، وجعله مقبولاً أنه أدخل عليه ما يقربه إلى الصحة والإمكان ، وهو لفظ (لو) .

ثم زاد المعنى وأوغل بأن جعل الناس اجتمعوا بفنائه ، ورضوا الإقامة به ، ولم يتحولوا عنه ، وهو مع ذلك يفيض بالجود فقال :

مَازَالَ فِي سَيْبِهِ سَجْلٌ يَعُمُّهُمُ مَادامَ فِي الأرضِ من أوتادِها وَتَدُ

فأبان عن طريق الاستعارة التمثيلية (٢) أن سجلاً واحداً من أنهار الممدوح تكفي في إرواء كل من قصده وأتاه ، وما أجمل تلك الصورة التي رسم من خلالها الشاعر صورة الممدوح وجعله كالساقي بسجله نبات الأرض المتعطش إلى الماء .

وجملة (مازال في سيبه سجل يعمهم) واقعه جواباً للشرط (لو) قبلها ، كما أنها دالة على جملة الخبر المحذوف لـ (مادام) بعدها ، وتلك صنعة

---

(١) الغلو هو : إدعاء بلوغ الشيء إلى حد كونه غير ممكن عقلاً المستلزم لكونه غير ممكن عادة . ينظر مواهب الفتاح ٢/ ٥٥٠

(٢) حيث شبه هيئة المبذول من مواهب الممدوح وعطاياه على الضيفان ، بهيئة السجل العظيم المملوء من النهر الغزير الفيَّاض فيعم نفعه وإرواؤه ، بجامع الهيئة الدَّالة على غزارة العطاء مع عموم النفع في كل ، ثم حذفت هيئة المشبه ، واستعيرت هيئة المشبه به له على سبيل الاستعارة التمثيلية .

شعرية ساحرة تدل على مدى تمكن الشاعر من ألفاظه ، وقدرته على صياغتها في القالب الذي يريده وسبكه لها أحسن السبك حيث يستطيع أن يجعل الجملة الواحدة تسد مسد الجملتين ، وقد رأينا ذلك في أكثر من موضع في تلك القصيدة .

ثم بين أن عطاء الممدوح ثابت ومستمر على مر الأيام فقال :

مَادامَ فِي الأرضِ من أوتادِها وَتَدُ

والمعنى أن هذا الممدوح سيظل كذلك ومن جاء بعده من نسله يسيرون على دربه في الكرم والجود والسخاء ، وكأننا نستشعر من هذا الخبر معنى الدعاء .

كما نكاد نستشعر في هذا الشطر تشبيهاً ضمنياً حيث يشبه الشاعر الممدوح و من أتى بعده من ذريته بالأوتاد التي تثبت بها الأرض وتستقر .

ولنا أن نتأمل ذلك التنكير في كلمة (سجل) ، وكلمة (وتد) وما يفيده من معنى التفخيم والتعظيم ، فهو سجل أي سجل ، وجبل أي جبل .

ثم ختم ذلك المعنى بقفل جيد فقال :

فِي النَّاسِ للنَّاسِ أنَدادٌ وليسَ لَهُ فِيهم شَبِيهٌ وَلا عَدلٌ وَلا نِدَدُ

ففصل هذا البيت عمَّا قبله لما بينهما من كمال اتصال ؛ لأنه بمثابة التوكيد المعنوي له ، إذ إن كلاً منهما يقرر معنى واحداً وهو تفرد الممدوح وتفوقه في ساحة الشرف والمجد والجود .

وجاء قوله : (في الناس للناس أنداد) توطئة وتمهيداً لما بعده ، حيث ذكر القاعدة العامة وهي أن لكل فرد من يشبهه في هذه الحياة في أخلاقه وعاداته وسلوكه ثم استثنى من تلك القاعدة الممدوح فقال :

وليسَ لَهُ فِيهم شَبِيهٌ وَلا عَدلٌ وَلا نِدَدُ

فسلط النفي على الجار والمجرور فقال (ليس له) لينفى النظير والشبيه عن الممدوح ويثبته لغيره ، ولذا يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني: (وحكم الجار والمجرور في جميع ما ذكرنا حكم المنصوب ، فإذا قلت : " ما أمرتك بهذا " كان المعنى على نفي أن تكون قد أمرته بذلك ، ولم يجب أن تكون قد أمرته بشيء آخر ، وإذا قلت : " ما بهذا أمرتك " كنت قد أمرته بشيءٍ غيره .) [١]

والمتأمل يجد أن الشاعر قد بدأ بالأدنى فنفاه ، ثم الأعلى فالأعلى ، حيث نفى الشبيه ، ثم نفى العديل ، ثم نفى الند ، وهذا ما يعرف عند البلاغيين بالترقي [٢]

---

(١) دلائل الإعجاز ص / ١٢٧

(٢) الترقي هو : أن يذكر المعنى ، ثم يردف بما هو أبلغ منه ينظر التبيان في البيان للإمام / الطيبي ص / ٤٩١ تحقيق د/ عبد الستار حسين زموط دار الجيل – بيروت الطبعة الأولى ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م .

فإن قيل : كان الأولى أن يقدم الوصف الأعلى ، ثم ما دونه ، حتى ينتهي إلى أضعفها لأنه إذا بدأ بسلب الوصف الأعلى ثم ما دونه كان ذلك أبلغ في المدح ؛ لأنه لا يلزم عن سلب الأعلى سلب ما دونه .

قيل : إذا سلب الوصف الأدنى انتفى وجه من المماثلة بينهما ، ثم إذا سلب وصف أقوى منه انتفى وجه من المماثلة أقوى ، ثم لا يزال يسلب أسباب المماثلة أقواها فأقواها حتى تنتفي المماثلة كلها بهذا التدرج ، وهذه الطريقة ألطف من سلب أسباب المماثلة أقواها ، ثم أضعفها ، فأضعفها. (١)

(١) ينظر البرهان في علوم القرآن للإمام / بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ٣ / ٢٧١تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم

المبحث الثاني

مدح آباء الممدوح وقومه

إِنِّـي لَمُر تَحِلُ بالفَجـرِ يُنْصِبُنِـي حتَّـى يُفَـرجَ عَنِّي هَمٌّ مـا أجِدُ

لَـو كَانَ يَخْلُدُ أقْـوَامٌ بِمَجْدِهِـمُ أو مـا تَقَدَّم مِنْ أيَّامِهـم خَلَـدُوا

أو كانَ يَقْعُدُ فَوْقَ الشَّمسِ مِن كرَمٍ قَـومٌ بِأوَّلِهم أو مَجْدِهِـم قَعَـدُوا

قَوْمٌ أبوهُم سِنَـانٌ حِـينَ تَنْسُبهُـم طَابُوا وَطابَ مِنَ الأولاد ما ولدوا

إِنسٌ إذا أمِنـوا جِـن إِذَا غضبوا مُرَزَّءُونَ بَهَـالِيلٌ إِذَا جُهِـدُوا

مُحَسَّدونَ عَلَـى مَا كانَ مِن نِعَـمٍ لاَ يَنْزِعُ اللهُ منهم ما لهُ حُسِدُوا

لَـو يُوزَنُون عِيَـاراً أو مُكايَلَـةً مَالُوا بِرَضوَى وَلَـم يَعْدِ لهُمُ أحَدُ

المعنى العام :

هنا ينيخ الشاعر راحلته ، ويضع أجود بضاعته بباب الممدوح وقومه، فأخذ يذكر مجدهم ، وطيب أصلهم ، ورفعة شأنهم ، ورقتهم ولطفهم مع أهل ودهم ، وغلظتهم وشدتهم مع أعدائهم ، وأنهم لا يزالون محسودين ولا يستطيع المرء أن يقدر قدرهم ، ولا أن يحصى فضائلهم .

التحليل البلاغي :

يبدأ الشاعر تلك المقطوعة الختامية بقوله :

إِنِّـي لَمُر تَحِلٌ بالفَجرِ يُنْصِبُنِـي حتَّـى يُفَـرجَ عَنِّي هَمٌّ مـا أجِدُ

والبدء بالتأكيد بـ (القسم وإنَّ واللام) مشعر بمدى توافر الثقة منه في ممدوحة وشدة تعلق قلبه به ، وتقرر ذلك في نفسه .

كما أن في التعبير بلفظ (الارتحال) [١] دلالة على صعوبة الرحلة ، وطول السفر وأنه مما يتطلب راحلة قوية ، وزاداً ، وقوة ، وعزيمة صلبة .

وحذف الجار والمجرور المتعلق بـ (مرتحل) ، والأصل أن يقول : (إني لمرتحل إليهم) ليدعى أن هؤلاء القوم معرفون بالكرم والجود ، ومشتهرون به ، و أنهم حقيقون بالارتحال إليهم ، لا أحد سواهم ، فمتى ارتحل فلن يقصد غيرهم ، ولن يعوج عن طريقهم .

وعبَّر بالباء فقال (بالفجر) ، ولم يقل : في الفجر ؛ لأن (الباء) وما فيها من معنى الإلصاق تعكس لنا الرغبة القوية في نفسه ، فبمجرد ملابسة أول خيط من خيوط الفجر سيتوجه مباشرة إليهم دون تباطؤ ، أو تأخر ، ولذا قيل : (إن حرف الظرفية يتلاءم مع كل ما يراد به الدلالة على التمكن والاستقرار ، والضرب في أعماق الشيء ، والتغلغل في أطوائه ، استمداداً من

---

(١) وذلك لأن (افتعلت) تأتي بمعنى اتخذت ذلك ، تقول : ارتحلت : أي اتخذت راحلة وهي كناية عن السفر الطويل . ينظر أدب الكاتب باب افتعلت ومواضعها ص / ٤٦٩ .

إحاطة الظرف بمظروفه واحتوائه له ، واشتماله عليه ، في حين يستجيب حرف الإلصاق لكل غرض يراد منه مطلق التلبس والمصاحبة لأي جزء من أجزاء الملتصق به ، دون الدلالة على الدخول في أعماقه ، والاختفاء فيه .) (١)

ثم قال : (ينصبني) فأسند الإنصاب إلى الفجر ، والفجر لا ينصب أحداً ، و لكن لما كان السفر في هذا الوقت سبباً في النصب الشديد ، أسند الإنصاب إليه عن طريق المجاز العقلي الذي علاقته السببية ؛ لإبراز قوة هذا السبب ، وبيان أثره .

وقال (حتى يُفرَّج عنى) فجعل غايته انفراج همه ، والأصل أن يقول : حتى أصل إلى هؤلاء القوم ، ولكنه عبَّر بالإفراج عن الوصول ؛ لأنه مسبب عنه ، ففيه مجاز مرسل علاقته اللازمية (٢) **لإدعاء أن زوال الهم وانفراجه لازم بمجرد وصوله إليهم ، ونزوله عليهم .**

وبنى الفعل (يُفَرَّج) للمجهول ، وحذف المسند إليه لبيان أن الفاعل معلوم ، مشتهر بالجود والكرم ، ولادعاء أنهم لا يوجد من يشبههم أو يقاربهم في خصالهم وشرفهم حتى ينصرف الذهن إليه دونهم .

---

(١) من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم د/ محمد الأمين الخضري ص / ١٨٨ ، ١٨٩ مكتبة وهبة الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩م .

(٢) اللازمية هي : كون الشيء يجب وجودة عند وجود شيء آخر

ينظر حاشية الشيخ محمد الإنبابي ص/ ٢١٦ .

ثم أخذ يمطر قوم الممدوح بأعذب معاني المدح فقال :

لَـو كَانَ يَخْلُدُ أقْـوَامٌ بِمَجْدِهِـمُ أو مـا تَقَدَّم مِنْ أيَّامِهـم خَلَـدُوا

أو كانَ يَقْعُدُ فَوْقَ الشَّمسِ مِن كرَمٍ قَـومٌ بِأوَّلِهم أو مَجْدِهِـم قَعَـدُوا

بنى الشاعر هذين البيتين على الشرط بـ (لو) ، والشرط أحد الطرق التي تثير المخاطب ، وتجعله متشوقاً شغوفاً لسماع ما يأتي بعده من جواب، وخاصة إذا كان بهذه الأداة (لو) التي تذهب بالنفس إلى ما وراء الممكن، و لذا قيل : (يرتبط الشرط بجوابه ويفتقر إليه ، فالجواب متعلق بالشرط تعلق الخبر بالمبتدأ ، والمتحدث بالجملة الشرطية عندما ينطق بالشرط يترقب المخاطب الجواب وينتظره ؛ لأنه المتمم لمعنى الجملة .) [١]

وقال : (لو كان) فسلط أداة الشرط على (كان) دون الفعل (يخلد) حيث إن (كان) وما تدل عليه من حكاية الزمن الماضي تبين عن أن الذي حال بينهم وبين أمر خلودهم وقعودهم فوق الشمس هو أن هذا الأمر ليس من سنن الكون ولا دخل لهم بذلك ، ولو حدث لما تخلفوا عنه لأنهم الأجدر به والأحق .

والمراد بـ (الأيام) أيام وقائعهم وحروبهم التي اشتهروا بها ، وعبَّر بالأيام عن أيام الوقائع والحروب عن طريق المجاز المرسل الذي علاقته

---

(١) التشويق في الحديث النبوي طرقه وأغراضه د/ بسيوني عبد الفتاح فيود ص /٨٨ مطبعة الحسين الطبعة الأولى ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م

الإطلاق أو المطلقية [١] للدلالة على اشتهار تلك الأيام ، وأنها إذا ذكرت انصرف الذهن إليها دون تقييد ، فلا تحتاج إليه ، ومنه قول عمرو بن كلثوم: [٢]

وأيَّامٍ لَنَا غُرٍّ طِوَالٍ عَصَيْنَا المَلْكَ فِيهَا أنْ نَدِيْنَا

فإنه يرد أيام الوقائع التي نصروا فيها على أعدائهم . [٣]

ثم عطف البيت الذي يليه بـ (أو) ، وهي هنا بمعنى (الواو) ، والأصل ترك الواو إذ البيت الثاني تأكيد لمعنى البيت الأول ، ولكن جاء العطف ليؤذن بالمغايرة المشعرة باستقلال كل منهما في الدلالة على المراد ، وبزيادة تمييز وتفخيم المعنى الثاني .

وجاء التعبير بالقعود للدلالة على مدى تمكنهم واستقرارهم فوق غاية المجد والشرف ، وثباتهم على الأخلاق الحميدة ، والفضائل العظيمة النبيلة وأنها تصدر عنهم بسجية وطبع .

وفي البيت تشبيه ضمني حيث يشبه مجدهم وشرفهم بالشمس الساطعة، ووجه الشبه هو شدة الظهور والارتفاع في كل ، وصاغ ذلك التشبيه في

---

(١) المطلقية هي : أي كون الشيء مجرداً عن القيود كلها في الإطلاق الحقيقي أو بعضها في الإضافي يُنظر حاشية الإنبابي ص / ٢١٧

(٢) ديوان عمرو بن كلثوم جمعه وحققه وشرحه د/ إميل بديع يعقوب ص / ٧١ دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة الأولى١٤١١هـ / ١٩٩١م .

(٣) ينظر لسان العرب مادة : يوم .

صورة ضمنية ليجعل أمر التشبيه مفروغاً منه ، ومسلماً به ، وكأنه لا مناقشة فيه ، بل هذه الصياغة الجديدة للتشبيه جعلت من الشمس مطية يمتطونها ، وجعلتهم مستقرين عليها ، متربعين فوقها .

كما لنا أن نلاحظ أن تلك الصياغة الضمنية للتشبيه كست المعنى بثوب المبالغة الحسنة ، حيث إن المعنى بالرغم مما فيه من غلو إلا أن الشاعر قريه من الإمكان بذكر (لو) التي أعطت المساحة للشاعر أن يخرج من حيز الإمكان إلى حيز الامتناع دون مؤاخذة أو لوم .

وبذلك قدَّم النقاد هذا البيت على بيت المتنبي الذي ألم فيه بمعنى هذا البيت فقال : (١)

فَلَمَّا جِئتُهُ أعلَى مَحَلِّي وَأَقْعَدَنِي عَلَى السَّبعِ الشِّدَادِ

يقول ابن وكيع معلقاً على ذلك : (فزهير احترس وقال : لو جاز أن يقعد قوم بحسب أو مجد فوق الشمس لقعدوا ، وأبو الطيب حقق جلوسة على السبع الشداد ، فليس هذا في قدرة الممدوح ، فكان زهيراً في الاقتصاد في المحال ، ورجحان لفظه على لفظ من أخذ عنه أحق بما قال .) (٢)

---

(١) ديوان المتنبى ص/ ٨٦ المكتبة الثقافية – بيروت .

(٢) المنصف للسارق والمسروق منه للحسن بن على الضبي التنيسي المعروف بابن وكيع ١/ ٤٣٨ حققه وقدم له / عمر خليفة بن إدريس جامعة قات يونس –بنغازي الطبعة الأولى ١٩٩٤م .

وعلى هذا يحمل قول سيدنا عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – عنه: إنه لا يمدح الرجل إلا بما فيه ، حيث لا يزال زهير يداور المعاني التي تكون فيها مبالغة وإغراق وغلو حتى يبصر لها طريقاً إلى الحقيقة ، ويجد لها مخلصاً إلى الواقع . (١)

وحذفت اللام من جواب الشرط في (خلدوا ، قعدوا) لإدعاءأن هذا الأمر مسلم به لهم ، ولا يدعى أحد امتناعه ، وأنهم جديرون به ، ومما زاد الجواب بهاءً ما اشتمل عليه من رد العجز على الصدر .

ثم أبان الشاعر عن أسباب كونهم في تلك المكانة السامقة فقال :

قَوْمٌ أبوهُم سِنَانٌ حِينَ تَنْسُبهُم طَابُوا وَطَابَ مِنَ الأولاد ما ولدوا

إِنسٌ إذا أمِنوا جِن إِذَا غضبوا مُرَزَّءُونَ بَهَالِيلٌ إِذَا جُهِدُوا

مُحَسَّدونَ عَلَى مَا كانَ مِن نِعَمٍ لاَ يَنْزِعُ اللهُ منهم ما لهُ حُسِدُوا

بنى الشاعر هذه الأبيات الثلاثة على حذف المسند إليه ، والتقدير : (هم قوم ، وهم إنس إذا أمنو ، هم جن إذا غضبوا ، هم مرزءون ، هم بهاليل إذا جهدوا ، هم محسدون) والحذف هنا مشعر بامتلاء النفس بخصال هؤلاء القوم ، وتزاحم المعاني لديها ، فأخذ يتخفف الشاعر بحذف المسند إليه فأبرز تلك الخصال ، وجعلها أسرع إلى الآذان ، ومحط العناية والاهتمام.

---

(١) ينظر تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق بن عبد الرازق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي ٣ / ١٦١ دار الكتاب العربي .

وجاءت كل تلك الخصال بغير عطف حيث فصل بينهما للدلالة على أنها اجتمعت فيهم اجتماعاً يصعب أن يحصل لغيرهم ، فهم في قمة المجد وساحة الشرف لا ينازعهم أحد .

والمراد بـ (أبوهم سنان) أي جدهم الأكبر، وهو أصلهم الذي تفرعوا عنه ، وعبَّر بالأب عن الجد الأكبر والأصل الأول على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية [١] ، وفي ذلك إشارة إلى مدى اعتزازهم به ، لأن الإنسان يحب أن ينسب إلى أعظم أجداده ، وأكثرهم شهرة ومجداً .

والمراد بـ (طابوا) أي عظموا وشرفوا ، وعبر عن العظم بالطيب على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية [٢]، وكأن مجدهم وشرفهم صار طيباً يعطرهم ، و ينشر في الأرجاء عبيرهم .

ثم قال : (وطاب من الولاد ما ولدوا) للاستقصاء [١] ، حيث أبان عن شرف الأجداد بقوله : (قوم أبوهم سنان) ، وأبان عن شرف الآباء فقال : (

---

(١) حيث شبه الجد الأكبر بالأب بجامع أن كليهما أصل للفرع ، ثم حذف المشبه ، واستعير لفظ المشبه به له على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية .

(٢) حيث شبه العظمة والشرف بالطيب بجامع الزينة والفخار بكل ، ثم حذف المشبه ، ثم استعير لفظ المشبه به له ، ثم اشتق من الطيب بمعنى العظم طابوا بمعنى عظموا على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

طابوا) ثم أبان عن شرف الأبناء والأحفاد بقوله : (وطاب من الأولاد ما ولدوا) فاستقصاهم ، ولم يترك منهم أحداً .

ثم أعرب عن حالهم في حالتي السلم والحرب فقال :

إِنسٌ إذا أَمِنوا جِن إِذَا غضبوا مُرَزَّءُونَ بَهَالِيلُ إِذَا جُهِدُوا

فجعلهم إنساً في السلم ، جناً في الحرب ، وهذان التشبيهان اللذان بناهما على طريقة المقابلة جئ بهما لبيان كمال هؤلاء الممدوحين في الحالين حيث يكونون في وقت الأمن في غاية الحلم والرقة والأنس والسخاء ، فإذا ما تغير الحال ، وأغضبهم أحد ما انقلبوا إلى نوع آخر من المخلوقين ، فليس سلمهم سلم متسلط جائر ، ولا حربهم حربٌ ضعيف خائر .

وتلك الرواية للبيت أقرب رحمى من السياق من رواية ثعلب له التي فيها : (٢)

جن إذا فزعوا إنس إذا أمنوا

---

(١) الاستقصاء هو : أن يتناول الشاعر معنى فيستقصيه إلى أن لا يترك فيه شيئاً . تحرير التحبير لابن الأصبع المصري ص/ ٥٤٠ تحقيق د/ حفني محمد شرف المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م

(٢) شرح شعر زهير بن أبى سلمى صنعة / أبو العباس ثعلب تحقيق د/ فخر الدين قبادة ص/ ٢٠٤ .

لأن التعبير بالغضب عن الفزع عن طريق المجاز المرسل الذي علاقته اللزومية فيه تلطف وتأدب ويتناسب مع مقام المدح ، أما لفظ الفزع فيتنافر مع هذا المقام ؛ لأن فيه إثباتاً للخوف للممدوحين .

ثم وصفهم بغاية الكرم والسخاء فقال : (مرزءون بهاليل إذا جهدوا) فأتي بالقيد (إذا جهدوا) للتتميم ، فأبان أن كرم هؤلاء القوم وسخاءهم لا مانع له فمع كثرة ما يصيبهم من قحط وقلة مطر وإجهاد تراهم على ما هم عليه من جود وسخاء نفس وكرم إذا رد عافي القدر من يستعيرها ، فكيف يكون حالهم في غير تلك الحالة ؟!

ولما كانوا ملأ الأبصار والأسماع كثر حُسَّادهم فقال :

مُحَسَّدونَ عَلَى مَا كانَ مِن نِعَمٍ لاَ يَنْزِعُ اللهُ منهم ما لهُ حُسِدُوا

لم يزل ذو الفضل محسوداً ، وكلما كثر الفضل كثر الحساد ، فوجود الحساد دليل على وجود الفضل ، وعدمهم على عدمه ، ولذا مدح شاعرنا أولئك القوم بأنهم محسدون ، وجاء التعبير بـ (محسَّدون) بالتشديد لبيان شدة هذا الحسدوكثرته [1] ، وتكراره مرات ومرات ، وهذا يشير إلى كثرة الفضائل الحميدة والخصال الجليلة التي اجتمعت لديهم ، واستقرت في دارهم وبين أثوابهم .

---

(١) وذلك لأن (فعَّل) تدخل على (فَعَل) ، إذا أردت كثرة العمل ينظر أدب الكاتب ص / ٤٦٠

ثم قال : (لا ينزع الله منهم ما له حسدوا) وهي جملة خبرية لفظاً إنشائية معنى ، إذ لفظها الخبر ، ومعناها الدعاء ، وجاء الدعاء في ثوب الخبر ليكشف عن صدق مشاعر القائل ومدى رغبته وحرصه على تحقيق هذا الدعاء ولذا فهو يعبر عنه ، ويفصح كما يبين عن الشيء الحاصل الموجود بالفعل .

وقال الشاعر : (لا ينزع الله منهم) ولم يقل (لا ينزع الله عنهم) للإشارة إلى أنهم مبدأ تلك الخصال والفضائل ومنشؤها ، وأنهم توارثوها كابراً عن كابر ، فهم يفعلونها بسجية وطبع وليست محدثة فيهم ، ولذا جاء التعبير بحرف الابتداء (من) .

وبذلك فقد أثبت الشاعر لهم تلك الفضائل في الماضي فقال : (على ما كان من نعم) ، ثم أخبر بثبوتها واستقرارها مدى الدهر فقال : (لا ينزع الله منهم ماله حسدوا) فاستقصى الزمان ، فكان في غاية الجودة والحسن .

وكان الأصل أن يدعو الشاعر للممدوحين بالسلامة من حسد الحاسدين ولكنه دعا لهم بأن يظل فيهم ذلك الحسد وهو كناية عن دوام وثبات تلك الفضائل العظيمة فيهم ولذا قيل : (وفصل القضية في ذلك أن وجود الحاسد – كما مر – دليل على وجود الفضل ، وذلك لما عرف أن الحسد هو حب زوال

ما ظهر على الغير من خير ، إما ديني أو دنيوي ، حسي أو معنوي ، عاجل أو آجل ، حقيقي أو ادعائي ، فلزم من وجود الحسد وجود الخير .)[١]

ولذا أخذ جماعة هذا المعنى من زهير وتصرفوا فيه ومنهم أبو تمام إذ يقول :

لَولاَ التَّخَوُّفُ للعَواقبِ لم يَزَل للحَاسدِ النُّعْمَى علَى المَحْسُودِ

لَوْلا اشتعالُ النَّارِ فيمَا جَاوَرَتْ مَا كَانَ يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ العُودِ

ومنه قول البحتري : [٢]

وَلَنْ يَسْتَبِينَ الدَّهْرَ مَوْضِعَ نِعْمَةٍ إِذَا أَنْتَ لَم تُدْلَلْ عَلَيْهَا بِحَاسِدِ

وقال كذلك في موضع آخر : [٣]

مُحَسَّدُونَ كَأَنَّ المُكْرَمَاتِ أَبَتْ أَنْ تُوجَدَ الدّهرَ إِلاَّ عِنْدَ مَحْسُودِ

وقال ثالث : [٤]

مُحَسَّدُونَ وَشَرُّ النَّاسِ مَنْزِلَةً مَنْ عَاشَ فِي النَّاسِ يَوماً غَيْرَ مَحْسُودِ

---

(١) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي ١/ ٣٩٧ تحقيق أ / محمد عبده عزام دار المعارف الطبعة الخامسة .

(٢) ديوان المعاني لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحي بن مهران العسكري ٤٦/١ دار الجيل – بيروت

(٣) ديوان المعاني ٤٦/١ .

(٤) ديوان المعاني ١ /٤٦ .

وقال نصر بن سيار : [(١)]

إنِّـي نَشَأتُ وَحُسَّادِي ذَوِى عَـدَدٍ　　يَـاذَا المَعَـارِجِ لاَ تُنْقِصْ لَهُم عَـدَدَا

إنْ يَحْسُدُونِي عَلَى مَا بِي وَمَا بِهِمُ　　فَمِثْلُ مَا بِي لَعَمْرِي جَرَّ لِـي الحَسَـدَا

وقال معن بن زائدة وهو من أجمل ما تُصِرّف فيه في هذا المعنى : [(٢)]

إنِّي حُسِدتُ فَزَادَ اللهُ فِي حَسَـدِي　　لاَ عَاشَ مَنْ عَاشَ يَوْمَاً غَيْرَ مَحْسُودِ

مَا يُحْسَدُ المَرْءُ إلاَّ مِن فَضَائِلِـهِ　　بِالعِلمِ وَالظُّرفِ أو بِالبَأسِ وَالجُـودِ

ثم ختم المقطوعة والقصيدة بخاتمة حسنة فقال :

لَو يُوزَنُون عِيَاراً أو مُكايَلـةً　　مَالُوا بِرَضوَى وَلم يَعْدِ لهُمُ أَحَدُ

ففصل هذا البيت عما قبله لأنه بمثابة التأكيد المعنوي له ، ومن ثمَّ ترك العطف لكمال الاتصال حيث يؤكد معنى عظمهم وشرفهم .

وصدر البيت بأداة الشرط (لو) ليفسح المجال أمام خياله فيبرز هذا العظم وذلك الشرف في صورة الشيء الحسي المشاهد ، فقال : لو أردت أن تتبين قدر مكانتهم ما كان كافياً أن تجعل في مقابل تلك المكانة جبل رضوى

---

(١) الرسائل الأدبية　عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء ، الليثي ، أبو عثمان الشهير بالجاحظ ١/ ٣٩٠ دار مكتبة الهلال – بيروت　الطبعة الثانية – ١٤٢٣هـ

(٢) زهر الآداب وثمر الألباب لإبراهيم بن على بن تميم الأنصاري ، أبو إسحاق الحصري القيراواني ٢٤٧/١ دار الجيل – بيروت .

أو جبل أحد ، ومن ثمَّ فهذا تشبيه ضمني ، حيث شبه قدر مكانتهم وعظمهم وهو أمر معنوي بثقل جبل رضوى أو ثقل جبل أحد وهو أمر حسي ، فجسد مكانتهم وجعلها شاخصة بارزة أمام الأعين .

وأجاد الشاعر في أن بنى هذا التشبيه الضمنى على الشرط بـ (لو) ، والنفي بـ (لم) ليبين عن أن قدر أولئك أعظم من كل ذلك ، وأثقل في الميزان منه .

وقال الشاعر : (عياراً أو مكايلة) ولم يقصدهما بالذكر ، ولكنهما كناية عن معرفة قدر منزلتهم ومكانتهم بأي وسيلة كانت بالعيار أو المكايلة أو الحساب أوالعد ، أو غيرها ، ولكنه خصَّ العيار والمكايلة من بينها لأنهما يكونان فيما ثقل وزنه وعظم وضخم .

والبيت يعد خاتمة جيدة من الشاعر ، وموفقة في مقام المدح لأنها تجعل نفس السامع تدرك قدر الممدوحين .

الخاتمة

وبعد هذا العرض والتحليل الذي حاول الباحث من خلاله قراءة تلك القصيدة قراءة متأنية لتحليل مكوناتها اللغوية ومعرفة ما يختبئ وراءها من أسرار بلاغية يمكن الوقوف على أهم الأمور التي قدمت تلك القصيدة عند ابن عباس – رضى الله عنه – وجعلت من شاعرها زهير بن أبى سلمى من أشعر العرب عنده فيما يلي :

(١) زهير بن أبى سلمى يختار ألفاظه بدقة وعناية ، ويستخدمها الاستخدام الأمثل لها .

(٢) اشتمال القصيدة على حسن الابتداء والانتهاء .

(٣) الترابط بين معاني القصيدة ، حيث استطاع الشاعر أن ينتقل بين معانيها وفصولها بسهولة ويسر دون أن يشعر المخاطب ، بل جعلها في غاية التلاحم عن طريق حسن التخلص بينها .

(٤) في هذه القصيدة رد على من ذهب إلى أن زهير بن أبى سلمى كان لا يحسن التخلص وكان ينتقل بما يعرف بالاقتضاب أو بدع ذ ، أوعد عن ذا ، فالمتأمل شعر الشاعر يجده يستخدم الاقتضاب في مقامه وحسن التخلص في مقامه .

(٥) ليس معنى قول عمر – رضى الله عنه – عن زهير بن سلمى : (ولا يمدح الرجل إلا بما فيه) أنه كان يتجنب المبالغة في

المدح ، ولكن معناه أن زهيراً كان يجتهد بصنعته الساحرة في الشعر فيظل يداور معاني المدح ، ويصوغها بطريقته حتى يجد لها طريقاً يقبله العقل والذوق ، وتكون أقرب إلى الحقيقة والواقع .

(٦) تمكن زهير من أداته اللغوية جعله قادراً على صوغ المعنى الذي يريده في أكثر من قالب لفظي مع تشابه القالب التركيبي ، وتكرر ذلك في أكثر من موضع في القصيدة كما في البيتين (الثاني عشر والثالث عشر)، والبيتين (السابع والعشرين والثامن والعشرين) .

(٧) زهير متمكن من صنعته الشعرية حيث إن الصياغة التركيبة للألفاظ تنم عن شاعر ماهر حاذق يزن الكلام بميزان الذهب ، ولنا أن نتأمل في البيت الثاني ، والبيت الخامس ، والبيت السابع وغيرها .

وبعد :

فإني أسأل الله – عز وجل – أن أكون قد وفقت في عرض وتحليل ودراسة تلك القصيدة دراسة بلاغية ، ووفقت في التوصل إلى أسباب تقديم عبد الله بن عباس – رضي الله عنه – لقائلها على غيره من الشعراء ، وأسأله جل شأنه أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، والله من وراء القصد وهو حسبي ونعم الوكيل .

كما أسأله سبحانه الخير كل الخير لآبائنا ، وأمهاتنا ، وإخواننا ، وأخواتنا ، وأساتذتنا ، ومعلمينا ، ومشايخنا ، وأزواجنا ، وذرياتنا وجميع من لهم حق علينا إنه سميع قريب مجيب .

" الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله "

وصلّ اللهم وسلم وبارك على

سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم -

(الفهارس)

أولاً : فهرس المصادر والمراجع

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير لعبد الله بن المقفع دار صادر – بيروت.

(٢) أدب الكاتب لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة تحقيق / محمد الدالي مؤسسة الرسالة – بيروت الطبعة الثانية ١٤١٣هـ / ١٩٩٦م .

(٣) أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية د/ صبَّاح عبيد دراز مطبعة الأمانة – بشبرا الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .

(٤) أشعار الشعراء الستة الجاهليين تأليف / أبو الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى الشنتمرى الأندلسي المعروف بالأعلم

تحقيق د / محمد عبد المنعم خفاجي دار الآفاق الجديدة .

(٥) الأمالي لأبي على القالي عنى بوضعها وتربيتها / محمد عبد الجواد الأصمعي دار الكتب المصرية الطبعة الثانية ١٣٤٤هـ / ١٩٢٦م .

(٦) الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني تحقيق د/ محمد عبد المنعم خفاجي دار الجيل – بيروت الطبعة الثالثة .

(٧) البرهان في علوم القرآن للإمام / بدر الدين محمد بن عبد الله الرزكشي تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم مكتبة دار التراث – القاهرة .

(٨) تاريخ آداب العرب للمؤلف / مصطفى صادق بن عبد الرازق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي دار الكتاب العربي .

(٩) تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) د/ شوقي ضيف دار المعارف الطبعة الخامسة عشرة .

(١٠) تحرير التحبير لابن أبي الإصبع المصري تحقيق د/ حفني محمد شرف المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(١١) التحرير والتنوير لسماحة الأستاذ الإمام الشيخ / محمد الطاهر بن عاشور دار سحنون – تونس .

(١٢) التشويق في الحديث النبوي طرقه وأغراضه د / بسيوني عبد الفتاح فيود مطبعة الحسين الإسلامية الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ/١٩٩٣م.

(١٣) تقريب منهاج البلغاء د/ محمد محمد أبو موسى مكتبة وهبة الطبعة الثانية ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م .

(١٤) حاشية الشيخ محمد الإنباني على رسالة الشيخ محمد الصبان المطبعة الأميرية الطبعة الأولى ببولاق – مصر ١٣١٥هـ

(١٥) الحركة الأسلوبية د/ عبد الرازق محمد فضل .

(١٦) الجبال والأمكنة والمياه لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري جار الله تحقيق د/ أحمد عبد التواب عوض المدرس . دار الفضيلة – للنشر والتوزيع – القاهرة عام النشر ١٣١٩هـ / ١٩٩٩م

(١٧) جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام تأليف / أبى زيد محمد بن أبى الخطاب القرشى حققه وضبطه وزاد في شرحه / على محمد الجاوى مطبعة نهضة مصر .

(١٨) دراسات في الشعر الجاهلي د/ يوسف خليف دار غريب – القاهرة .

(١٩) دراسة في نصوص العصر الجاهلي تحليل وتذوق المؤلف / السيد أحمد عمارة مكتبة المتنبي .

(٢٠) دلائل الإعجاز تأليف الشيخ الإمام / أبى بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي قرأه وعلق عليه / أبو فهر محمود محمد شاكر مطبعة المدني – بالقاهرة .

الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م .

(٢١) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزى تحقيق / محمد عبده عزام دار المعارف الطبعة الخامسة .

(٢٢) ديوان أوس بن حجر تحقيق وشرح د/ محمد يوسف نجم دار بيروت للطباعة والنشر – بيروت ١٤٠٠هـ /١٩٨٠م

(٢٣) ديوان البحتري عنى بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه / حسن كامل الصيرفي دار المعارف – الطبعة الثالثة .

(٢٤) ديوان زهير بن أبى سلمى قدم له وشرحه / على حسن فاعور دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م

(٢٥) ديوان عمر بن كلثوم جمعه وحققه وشرحه د/ إميل بديع يعقوب دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة الأولى ١٤١١هـ / ١٩٩١م .

(٢٦) ديوان المتنبي المكتبة الثقافية – بيروت .

(٢٧) ديوان المعاني لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحى بن مهران العسكري دار الجيل – بيروت .

(٢٨) الرسائل الأدبية عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء الليثي أبو عثمان الشهير بالجاحظ دار مكتبة الهازن – بيروت الطبعة الثانية ١٤٢٣هـ .

(٢٩) زهر الآداب وثمر الألباب لإبراهيم بن على بن تميم الأنصاري أبو إسحاق الحصري القيرواني دار الجيل – بيروت .

(٣٠) شرح ديوان أبي الطيب المتنبي المنسوب لأبي العلاء المعري (معجز أحمد) تحقيق د/ عبد المجيد دياب الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة الثانية ٢٠١٣م .

(٣١) شرح ديوان جرير تأليف / محمد إسماعيل عبد الله الأنصاري المكتبة التجارية الكبرى مطبعة الصاوي .

(٣٢) شرح ديوان جميل بثينة شرحه وقدم له / مهدي محمد ناصر الدين دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

(٣٣) شرح ديوان عنترة للخطيب القزوينى قدم له ووضع هوامشه وفهارسه / مجيد طراد دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة الأولى ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م .

(٣٤) شرح المعلقات التسع المنسوب لأبي عمرو الشيباني تحقيق وشرح / عبد المجيد همو مؤسسة الأعلمى – بيروت الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م .

(٣٥) شرح المعلقات السبع تأليف / أبى عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني لجنة تحقيق التراث في الدار العالمية – بيروت ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م .

(٣٦) الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء د/ محمد محمد أبو موسى مكتبة وهبة الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م .

(٣٧) الشعر والشعراء لابن قتيبة تحقيق وشرح / أحمد محمد شاكر دار المعارف .

(٣٨) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي تحقيق / أحمد عبد الغفور عطا دار العلم للملايين الطبعة الرابعة ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧م .

(٣٩) الصناعتين لأبى هلال العسكري تحقيق د/ مفيد قميحه دار الكتب العلمية – بيروت .

(٤٠) طبقات فحول الشعراء تأليف / محمد بن سلام الجمحى قرأه وشرحه / محمود محمد شاكر مطبعة المدني .

(٤١) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح للشيخ / بهاء الدين أبى حامد بن على بن عبد الكافي السبكي تحقيق د/ خليل إبراهيم خليل دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م .

(٤٢) علم المعاني د/ بسيوني فيود مؤسسة المختار الطبعة الأولى ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م .

(٤٣) العمدة في محاسن الشعر وآدابه للإمام / أبى على الحسن بن رشيق القيرواني تحقيق / محمد عبد القادر عطا دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م .

(٤٤) قراءة في الأدب القديم د/ محمد محمد أبو موسى مكتبة وهبة الطبعة الثانية ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م .

(٤٥) قلائد الجمان في التعريف بقبائل الزمان لأبى العباس أحمد بن على القلقشندى تحقيق / إبراهيم الإبياري دار الكتاب المصري الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .

(٤٦) لسان العرب لابن منظور دار المعارف .

(٤٧) مجانى الأدب في حدائق العرب المؤلف / رزق الله يوسف بن عبد المسيح بن يعقوب شيخو مطبعة الآباء اليسوعيين – بيروت ١٩١٣م .

(٤٨) المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم للعلامة / سعد الدين مسعود بن عمر التفتازانى تحقيق د/ عبد الحميد هنداوي دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م .

(٤٩) معجم البلدان لشهاب أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي دار صادر بيروت الطبعة الثانية ١٩٩٥م .

(٥٠) مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب لجمال الدين بن هشام الأنصاري تحقيق د/ مازن المبارك ومحمد على حمد الله راجعه / سعيد الأفغاني دار الفكر – بيروت الطبعة الأولى ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م .

(٥١) مقامات أبى الفضل بديع الزمان الهمذاني شرحها العلامة الفاضل الشيخ / محمد عبده المصري الهيئة العامة لقصور الثقافة – القاهرة ٢٠١٣م .

(٥٢) من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم د/ محمد الأمين الخضري مكتبة وهبة الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م .

(٥٣) من بلاغة القرآن د/ أحمد أحمد بدوي نهضة مصر ٢٠٠٥م

(٥٤) المنصف للسارق والمسروق منه للحسن بن على الضبى التنيسى المعروف بابن وكيع حققه وقدم له / عمر خليفة بن إدريس .

جامعة قات يونس – بنغازي الطبعة الأولى ١٩٩٤م .

(٥٥) مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لأبى العباس أحمد بن محمد بن محمد بن يعقوب المغربي تحقيق د/ خليل إبراهيم خليل دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى ٢٠٠٣م / ١٤١٤هـ .

(٥٦) النحو الوافي أ/ عباس حسن دار المعارف الطبعة الحادية عشرة

ثانيًا : محتويات البحث

الموضــوع
المقدمة
التمهيد
أولاً : التعريف بزهير بن أبى سلمى
اسمه ونسبه
مولده ونشأته
أسرة شاعرة
صفاته
مدرسته الشعرية
تقديم زهير على الشعراء
ثانياً : عرض القصيدة
الفصل الأول : حنين وشوق
المبحث الأول : الذكرى والحنين لأيام الصبا

المعنى العام
التحليل البلاغي
المبحث الثاني : الشوق إلى اللقاء
المعنى العام
التحليل البلاغي
المبحث الثالث : بيان ما بينهما من بعد مسافة وطول سفر
المعنى العام
التحليل البلاغي
الفصل الثاني : وصف الناقة والرفقاء
المبحث الأول : وصف الناقة
المعنى العام
التحليل البلاغي
المبحث الثاني : وصف الخلان والأصحاب رفقاء الرحلة
المعنى العام

التحليل البلاغي
الفصل الثالث : المدح
المبحث الأول : مدح ابن سلمى سنان وابنه هرم
المعنى العام
التحليل البلاغي
المبحث الثاني :مدح آباء الممدوح وقومه
المعنى العام
التحليل البلاغي
الخاتمة
الفهارس
أولاً : فهرس المصادر والمراجع
ثانياً : محتويات البحث